صالح الجعفراوي حتى استشهاده

ما بين

الواحد و الثلاثين

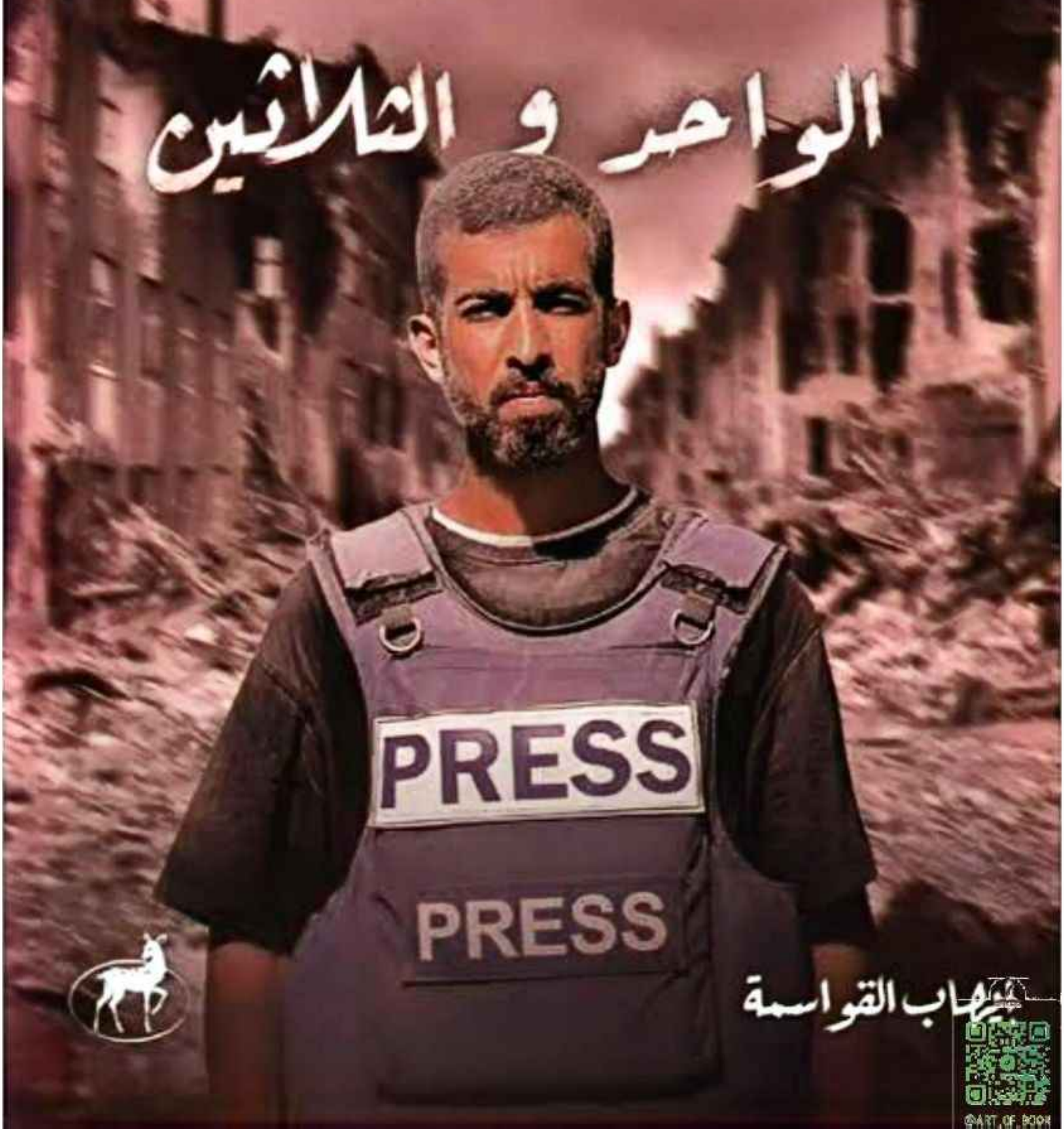

وهاب القواسمة

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

اسم المؤلف: إيهاب القواسمة.
اسم الكتاب: ما بين الواحد والثلاثين، رواية.
مدير النشر: ندى وليد.
مراجعة لغوية: إبراهيم حمزة.
الإخراج الداخلي: السعيد المصري.
طبعة دير الأولى ٢٠٢٦م.
رقم الإيداع: 2025-5068
الترقيم الدولي: I.S.B.N: 9789778741018

ديير للنشر والتوزيع©

2 عمارات الوادي المنطقة 11 الحي الثامن مدينة نصر القاهرة
تليفون: 002024725789
E-mail:deer.publishing@gmail.com
Facebook @ deer.publishing
Instagram @ deer_for_publishing
Twitter @ deerpublishing
WhatsApp : 00201010106268

#في_القراءة_حياة
#القراءة_حب

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
القاهرة- جمهورية مصر العربية

جميع الحقوق محفوظة لدير للنشر والتوزيع©، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير مباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته، أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية، أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا، أو استرجاعه، أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق صريح من الناشر.

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

«الإهـــداء»

***

إلى أمٍّ علّمت ابنها أنّ الدعاء أقوى من السّلاح،

وأنّ الركعة الصادقة ترفع بيتًا مهدومًا.

إلى مدينةٍ ربّت أبناؤها على ألّا ينكسروا، غزّة، الأم التي أنجبت الصّالح، الأرض التي علّمت أولادها أنّ الحصار ليس نهاية النفس، بل بدايته.

إلى الذين لم يُبدّلوا حين تبدّل الناس، الذين حفظوا الأذان في صدورهم، وساروا إلى الموت كأنهم يسيرون إلى الصلاة.

إلى الصّالحين في كل أرض، الذين لم يموتوا وإن غابت أجسادهم.

إلى كلّ صالحٍ صغيرٍ هناك، ما زال يحلم رغم القصف.

إلى الذين لم يتركوا غزّة حين كان الخروج نجاة

وللذين ماتوا فيها وهم يبتسمون.

إلى أولئك الذين لم يعرفوا الضعف.

إلى الوجوه التي بقيت في الذاكرة رغم الغبار، والأرواح التي تضيء من تحت الركام.

هذه الرواية لهم ، للذين عاشوا صالحين ورحلوا أنقياء.

«إيهاب فراس القواسمة»

***

@ART_OF_BOOK

«الإهـــداء»

***

هذا العمل مُقدّم عن روح الشهيد البطل

صالح عامر الجعفراوي

قبل أن تبدأ بقراءةِ هذا الكتاب، أتمنى أن تُهديَ لروحة الطاهرة سورة الفاتحة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7) ﴾.

***

@ART_OF_BOOK

«دعاء عن روح الشهيد صالح الجعفراوي»

***

اللهم يا حنان يا منان يا واسع الغفران اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله، وأغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس. اللهم من أحييته منا فأحييه على الإسلام. ومن توفيته منا فتوفاه على الإيمان.

اللهم ارحم (الشهيد صالح الجعفراوي) رحمة واسعة وتغمده برحمتك اللهم ارحمه فوق الارض وتحت الارض ويوم العرض عليك. اللهم قه عذابك يوم تبعث عبادك اللهم أبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله. وذرية خيرًا من ذريته وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة بغير حساب برحمتك يا أرحم الراحمين. اللهم أطعمه من الجنة واسقه من الجنة، وأرِهِ مكانه من الجنة وقل له أدخل من أي باب تشاء.

اللهم إن (الشهيد صالح الجعفراوي) في ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق، فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم.

اللهم وأرزقه لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك، وارجع نفسه إليك راضية مرضيه وأدخله في جنتك مع عبادك الصالحين. اللهم إن كان (الشهيد صالح الجعفراوي) من المحسنين فزد في حسناته وإن كان من المسيئين فتجاوز عن سيئاته، اللهم اسقه من حوض نبيك محمد صلى الله عليه وسلم شربة هنيئة مريئة لا يظمأ بعدها أبدًا.

اللهم وأظله تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك ولا باقي إلا وجهك، اللهم بيض وجهه يوم تبيض الوجوه وتسود وجوه، اللهم يَمن كتابه، اللهم وثبت قدمه يوم تزل فيها الأقدام.

اللهم آمين اللهم آمين يا رب العالمين

@ART_OF_BOOK

«المقـــدمة»

***

هذه ليست روايةً عن الحرب، ولا عن الموت، وإنما عن فتىً اسمه صالح، لم يكن يحلم بالمجد ولا بالبندقية، كان يريد فقط أن يلعب، أن يضحك، أن يعيش، أراد أن يكون لاعب تنس، فصار شهيدًا، وأراد أن يؤذّن، فصار صوت مدينةٍ كاملةٍ.

لم أكتب هذه الصفحات لأستدرّ الدموع، بل لأقول: إنّ الصبر ليس أن تصمت، بل أن تبقى إنسانًا رغم أن العالم كله يريدك أن تتحوّل إلى حجر، وأنّ الإيمان لا يعني أن نرضى بالإجبار، بل أن نحمله بأيدٍ مرتعشةٍ ولا نكفر.

كل كلمةٍ هنا نُزعت من وجعٍ عاشه أحدهم، كل جملةٍ مرت من بين يدي الأمهات الثكالى، ومن أصوات المؤذنين الذين بكَوا في صلواتهم، والشوارع التي ما زالت تحمل رائحة أحلامهم.

هذه ليست روايةً عن بطلٍ خارق، بل عن شابٍ كان عاديًا جدًا، يشبهنا جميعًا حين نضحك قبل أن نعرف ما ينتظرنا، شابٌ أحبّ الحياة إلى الحدّ الذي جعله يواجه الموت بوجهٍ مبتسم، وحين مدّ يده للكاميرا، كان يمسح عن وجه غزّة دموعها لا غبارها.

هذه حكايتكم، حكاية صالح الذي مات على هذه الأرض، ولكنّه حيٌّ عند الله.

«إيهاب فراس القواسمة»

في فلسطين، هناك مدينةٌ لا تشبه أحدًا... مدينةٌ تُرضع أفئدتها الصمود كما تُرضعهم الحليب، اسمها غزّة.

ليست مجرّد أرض، بل أمّ، أمّ علّمتني منذ ولادتي أن أكون أحد أبنائها الذين لا يعرفون إلا الوقوف، وُلدتُ في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام 1997، وكنتُ الطفلَ الأوسطَ بين ثمانيةٍ من الأرواح في بيتنا، كبرتُ في حضن غزّة، بين صوت البحر وصوت المآذن، تعلّمتُ منها أنّ الحبّ لا يكون بالكلمات، بل بالصبر، وأنّ الانتماء الحقيقيّ هو أن تبقى، حتى عندما يرحل الجميع.

طفولتي كانت هادئة، كأن الله كتب لي سكونًا مبكرًا قبل العواصف، كنتُ طفلًا هادئًا بطبعي، أجد راحتي في الكتب، وفي الاستماع لضحكات إخوتي.

كنتُ أحبّ الجلوس بجانب أمّي في المطبخ، أراقبها وهي تُحضّر الطعام وتتمتم بالأدعية، وكان يكفيني أن أنظر في وجهها لأفهم معنى الطمأنينة.

كنتُ حنونًا جدًا على أهل بيتي، على أبي حين يعود متعبًا من عمله، أقدّم له كوب الشاي، وأجلس عند قدميه لأدلّكهما، وعلى أمّي حين تمرض، أقرأ لها ما أحفظ من القرآن لأُخفّف عنها، وعلى إخوتي الصغار حين يبكون، أحتضنهم وأخبرهم أن الله لا ينسى أحدًا.

لم أكن أعرف أنّ هذا الحنان سيكون سلاحي لاحقًا في وجه عالمٍ قاسٍ لا يعرف الرّقة.

في المدرسة كنتُ طالبًا مجتهدًا ومتفوقًا، أحبّ الأرقام كما أحبّ القصص، وأحفظ الدروس كما أحفظ الأناشيد، كنتُ دائمَ المشاركةِ في الفعاليات المدرسية، أنشدتُ كثيرًا عن غزّة، لفلسطين التي لم أرها كاملة، وعن الأقصى الذي كان يزورني في أحلامي، كنتُ أرتدي الكوفية على كتفي، وأقف على المسرح أقول بصوتٍ قويٍّ رغم خجلي:

"يا قدس يا أمّي البعيدة، سنبقى على عهدكِ ما حيينا".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

وكان تصفيق زملائي في تلك اللحظات يجعلني أشعر أني جزء من شيء أكبر مني، شيء يشبه الوطن، يشبه القدر.

كبرتُ بين أهلٍ مؤمنين كالماء "أبي" الشيخ عامر جعفراوي، إمام المسجد الكبير في الحيّ، رجلٌ لا يُشبه أحدًا، يحمل في صوته خشوع المئذنة، وفي يديه تعب السنين.

كان يعمل في وزارة الأوقاف، وله عملٌ خاص به، وكان يعلّمني أن أكون قويًا، دون أن أرفع صوتي، وكان يقول لي دائمًا:

"يا صالح، اللين مش ضعف والصلابة مش قسوة، الرجولة إنك تقدر تكون رحيمًا وأنت موجوع".

أمّي "رندة" كانت امرأةً من نور، تحفظ القرآن وتعلّمه لجاراتها، وتملأ البيت برائحة الخبز والدعاء، حين أسمع صوتها وهي تدعو لي بعد كل صلاة، كنتُ أؤمن أن كل نجاحٍ لي يبدأ من بين كفّيها، بيتنا لم يكن فقيرًا، كان ميسورًا بما يكفي أن نحيا بكرامةٍ دون ترف، لكنّ الغنى الحقيقي كان في القلوب، في الضحكة التي لا تنطفئ، وفي اللمة التي تجمعنا حتى لو انقطعت الكهرباء.

كبرتُ وأنا أوزّع وقتي بين المسجد والمدرسة والنادين في المسجد كنتُ أؤذّن أحيانًا بدل المؤذن الكبير، وصوتي الصغير كان يُفاجئ الناس بخشوعه.

وفي المدرسة كنتُ أشارك في الإنشاد والمسرحيات الوطنية، أغنّي لغزّة كما لو كنت أعتذر لها عن كل حربٍ مرت بها. وفي كلّ مرةٍ كنت أرفع بها صوتي، كنتُ أرى الفخر في عين أبي، والدمعة في عين أمّي، أما بعد المدرسة، فكنتُ أركض نحو النادي لألعب تنس الطاولة، الرياضة التي عشقتها كأنها قدري الجميل، الكرة البيضاء الصغيرة كانت تهرب مني، لكنّي كنتُ أعيدها دائمًا كما تُعيد غزّة أولادُها من الموت، لم تكن في حياتي شيئًا عاديًا؛ كلّ تفصيلٍ صغير كان يحملني إلى معنى أكبر:أن أكون صالحًا، كما

@ART_OF_BOOK

أراد أبي أن يسقيني، ربّاني على أن أصلح ما حولي، حتى لو كنتُ أعيش في عالمٍ يتكسّر كلّ يوم.

منذ طفولتي وأنا أحاول أن أكون فنانًا عربيًا ذا شأنٍ رفيع، وأجتهد من أجلِ أن أصنع لنفسي جمهورًا يُحبّني، على الرّغم من صغر سني، إلّا أنّني كنتُ شغوفًا، عشتُ في بيتٍ محافظ، تعلّمتُ قراءة القرآن وحفظه. ومنذ طفولتي كنتُ أسعى لمساعدة الآخرين؛ كنتُ أقوم بالكثير من المبادرات الخيريّة للأطفال، ولِكبار السنّ، ولكل من هم بحاجةٍ إلى المساعدة.

في هذا البيتِ القابع على حافةِ الحي، نبتُّ كما ينبت النخيل: رفيعًا، صامتًا، متشبّعًا بالصلابة والظلّ.

حيث كان يُحتضن القرآنَ كما يُحتضن صندوق الذكر، ووالداي علّماني التلاوةَ كأنها لغةٌ يوميّة.

ولأنّ الحياة تمنح التعدّد في الهوايات، لم يقتصر عالمي على الكلمات فقط، فمنذ أن بَلغتُ، ظهر بداخلي حبٌّ غريبٌ لطاولةٍ صغيرةٍ، وتلك الكرة السريعة التي تقفزُ مرورًا بخفّةٍ لا تُرى، تنس الطاولة كانت مملكتي الصامتة؛ صديقتي السريّة، في المدارس والمساجد ومقاهي الحيّ كنتُ أمارسها بشغف، وتبدّت سريعًا موهبةٌ تجتاحني: سرعةُ البصر، ردُّ الفعل، عقلٌ يخطط الضربة قبل أن يُفكّر بها الخصم.

صرتُ ألعب في البطولات المحليّة، ثم على مستوى فلسطين، ورفعتُ اسم مدينتي في مسابقاتٍ إقليميّة، حتى صرتُ أمثّل فلسطين في بطولاتٍ عربيّةٍ ودوليّة.

الكؤوس لم تُلهني عن القرآن، بل كنتُ أقرأ بين المباراة والأخرى، وكان صوتي عند الأذان له طعمٌ آخر، تلاوتي للسور القصيرة قبل الأذان، وحنجرتي التي تُبرز الرنين، جعلت الناس يلتفّون إليّ بعين المودّة والاحترام.

في المدرسة والمسجد، عرفني الناس ليس فقط كلاعبٍ موهوب، بل

كأحد الأصوات المُرضية للروح؛ صوتٌ يقرأ القرآن بصفاء، يصدح بالآيات في المساء حين تجتمع العائلة، ويؤذن أحيانًا. كان همّي أن أكون ابنًا صالحًا، ثم لاعبًا متميزًا، ثم فنانًا بكلماتٍ تُطلّ من قلب المدينة.

والدي، الذي علّمني أن أُصغي إلى الموج، كان يجد في نجاحي الرياضي فخرًا صامتًا، أما والدتي فكانت تقف في مشهد الحفلات الصغيرة التي تُكرّم الفائزين، وتدعو لي بصمتٍ طويل.

عائلتي، على الرغم من قوّة إيمانها، كانت بسيطةً جدًا.

عائلةٌ من ثمانيةِ أفراد: ثلاثةُ شبّان، وثلاثُ فتيات، ووالدي ووالدتي، وأنا أوسطهم.

عشنا حياةً كريمة، حياةً مليئةً بالأحلام والدين، لا غِنى فيها عن الحبّ ولا حضور فيها للترف. كان بيتُنا الصغير في أحد أحياء غزّة يشبه صاحبه: متعبًا لكنه نقيّ، قديمًا لكنه يحتفظ بالكرامة مثل أيّ بيتٍ فلسطينيٍّ رفض أن يسقط رغم الشقوق في جدرانه.

في عام 2014، حينِ كنتُ أنا وعائلتي نتبادل الحبّ كعادتنا، السماء تغيّرت فجأة، صارت رماديةً كأنّها تُغلق أبوابها علينا، علمنا أن ذلك الغاصب قد بدأ يفتك بجسد غزة، فاضطررنا للرحيل من منزلنا الذي شاركنا فيه ذكرياتٍ لا تُنسى، وخاصة في تلّ الهوى تحديدًا ـــ برج الظافر ـــ، ذلك البيت الذي رافقنا لسنواتٍ طويلة، احتضن بداخله أصوات ضحكنا، وبكاءنا، وصوت أذاني الصغير الذي كان يعلو من شرفته.

خرجنا ونحن نحمل ما استطعنا من الصور، والمصاحف، وبعض الملابس، كنتُ أمسك يد أمي وهي تنظر إلى البيت للمرة الأخيرة، وقالت لي بصوتٍ مكسور:

"خليه بإيد ربّك يا صالح... يمكن يرجع".

لكنّي كنتُ أعلم أنّ البيت، مثلنا، لن يعود كما كان.

@ART_OF_BOOK

انتقلنا إلى العيش في منطقةٍ أخرى تُسمَى مربع السرايا، بيتٌ متواضع في بنايةٍ مزدحمة، لكنّه كان بالنسبة لنا ملجأً من الجنون الذي يعصف في الخارج، كنّا نسمع أصوات القصف من بعيد كأنّها نبضاتُ قلبٍ مريض، كلّ ضربةٍ كانت تُزلزل المدينة، وتُعيد ترتيب خوفنا مجددًا.

حينها شعرتُ أن شيئًا ما تغيّر بداخلي. لم أعد أحتمل فكرة أن أكون مجرّد شاهدٍ صامتٍ على ما يحدث لمدينتي، كنتُ أرى الأطفال يركضون حفاةً، والأمهات يحملن أبناءهن بين الركام، والشيوخ يبكون بصمتٍ بعد أن ضاع بيتُهم الخامس، كلّ مشهدٍ كان ينغرز في صدري كمسامير لا تُنتزع.

أمسكتُ الكاميرا الصغيرة التي كنتُ أستخدمها في توثيق رحلاتي وبطولاتي الرياضية، ونظرتُ إليها وكأنّها سلاح، قلتُ في نفسي:

"يمكن الكرة ما كانت قدري، يمكن العدسة هي يلي كانت تستناني".

بدأتُ أخرج كلّ يومٍ رغم تحذيرات أمي:

"صالح، خليك، الدنيا بتخوف برّا".

لكنّي لم أعد قادرًا على الجلوس، كنتُ أشعر أنّ غزّة تناديني، أنّ صوتها بين القصف يقول:

"فرجيني للناس، احكي عنّي".

بدأتُ حينها بتصوير كلّ شيء:الأطفال وهم يلعبون رغم الخوف، الرجال وهم ينتشلون الجرحى من تحت الحجارة، الأطباء الذين يواصلون الليل بالنهار في المستشفيات، النساء اللواتي يُطعمن النازحين بما تبقّى من خبزٍ وشجاعة، كنتُ أعود إلى البيت منهكًا، أفرغ الصور على الحاسوب وأتأمّلها طويلاً، كنتُ أرى فيها نفسي، أرى وجه أبي في وجه أيّ رجلٍ يرفع جثمان ابنه، وأرى أمي في كلّ امرأةٍ تنادي على طفلها بين الغبار.

وفي ليلةٍ من ليالي الحرب، جلستُ على سطح البيت الجديد، أراقب ألسنة اللهب تبتلع الأفق، في تلك اللحظة أقسمت:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

"ما رح أخلّي العالم يشوف غزّة من نشرات الأخبار بس، رح يشوفها من عيوني، من وجعي، من صدقي".

منذ تلك الليلة تغيّر كلّ شيء، لم أعد صالح الرياضي أو المؤذن فقط، صرتُ شيئًا آخر، صرتُ الكاميرا التي ترى، وصوت الناس الذين لا يملكون صوتًا.

في هذا العام، كنتُ في سن الثامنة عشرة، شابّ على حافة الحلم، أنتظر نتيجة الثانوية العامّة وأنا أسمع أصوات الانفجارات في الخارج.

الحرب بدأت فجأة، كأنّ السماء غضبت على المدينة بأكملها، غزّة كانت تحترق خمسين يومًا متواصلة، خمسون يومًا لا تُقاس بالساعات، بل بالأنفاس التي كنّا نسرقها بين القصف والآخر.

كلّ ليلةٍ كنتُ أقول لأمي:

"رح تمر يا أمّي، مثل كل مرة".

لكن هذه المرة لم تمرّ، هذه المرّة شعرت أنّ المدينة تنزف أكثر منّا جميعًا، خلال تلك الأيام الطويلة كنتُ أخرج أحيانًا لأوثّق ما أراه، أحمل كاميرتي الصغيرة، وأحاول أن ألتقط للحياة ملامحها قبل أن تختفي، كنتُ أرى الأطفال يلعبون على أنقاض بيوتهم كأنهم يتحدّون الحزن بالضحك، وأرى الرجال يرفعون الركام كأنهم يبحثون عن قلوبهم بين الحجارة.

كنتُ أعود منهكًا، أفرغ الصور وأبكي بصمت، ثم أمسح دموعي، وأعدُ نفسي أن أكمل في اليوم التالي، خمسون يومًا مرّت كعمرٍ كامل.

وعندما انتهت الحرب، كان العالم يحتفل بانتهاء القصف، أما نحن فكنا نحاول فقط أن نتذكّر كيف نعيش مرة أخرى.

في أول يومٍ بعد وقف إطلاق النار، ذهبتُ مع أبي إلى المدرسة لأرى نتيجتي، كانت لافتة صغيرة معلّقة على الحائط:

"الطالب صالح عامر الجعفراوي - ناجح".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

ابتسمتُ وأنا أقرؤها، شعرتُ أني نجوت من شيئين في وقتٍ واحد من الحرب ومن الفشل، أمي بكت حين أخبرتها، وأبي رفع يده للسماء وقال:

"الحمد لله، يا رب يتمّم لك بالخير".

كانت لحظةً قصيرة، لكنها أعادت لي شيئًا من الضوء الذي فقدته. التحقتُ بعدها بجامعةٍ محليّة " الجامعة الإسلامية" قسم الصحافة والإعلام. كنتُ أريد أن أفهم كيف تُصنع الحقيقة، كيف تُروى الحكايات التي لا يسمعها أحد. أردت أن أوثّق الوجع بطريقةٍ تُبقيه حيًا بدل أن يختفي مع الغبار، ورغم دراستي الجديدة، لم أترك رياضتي.

كنتُ أذهب إلى النادي كلّما هدأ الوضع قليلًا، ألعب تنس الطاولة بشغفٍ لا ينتهي، أمسك المضرب وكأنّي أمسك الحياة نفسها. أصدقائي كانوا يضحكون ويقولون لي:

"يا صالح، في ناس بتفكر بالهجرة وإنت بتفكر بالكرة"!

كنتُ أجيبهم:

"يمكن الكرة الصغيرة هاي، هي الإشي الوحيد يلي بعدها بتردّلي صدى الضحك".

بين قاعات الجامعة وصالات التدريب، كنتُ أعيش حياتين: واحدة أتعلم فيها كيف أكتب عن الحقيقة، وأخرى أمارس فيها الحياة كما لو أني أتحدّاها أن تسلبني البسمة.

أذكرُ أنّ فترتي الجامعية كانت مختلفة. كنتُ أشعر كأنني ولدتُ من جديد بعد الحرب، الناس من حولي يسيرون بسرعة، يضحكون، يتحدثون عن المستقبل، وأنا ما زلت أتعلم كيف أتنفس بهدوء، دون أن أبحث عن صوت الانفجار في الخلفية، دخلتُ قسم الصحافة والإعلام بلهفة طفلٍ يريد أن يعرف كيف يُكتب العالم، كنتُ أقرأ كل ما تقع عليه يدي، أتابع الأخبار، أراقب الكاميرات في يد المراسلين، وأتساءل في داخلي:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

"هل الصورة ممكن تحمي إنسانًا؟ هل الكلمة ممكن توقف حرب؟"

كنتُ من أوائل الحضور في المحاضرات،أسأل كثيرًا، أدوّن كثيرًا، وأتطوع في أي نشاطٍ جامعي ممكن، لم أكن أريد أن أتعلم فقط من الكتب، بل من الناس، فبدأتُ أشارك في الفعاليات الطلابية، أصور الحفلات والندوات، أكتب الأخبار الصغيرة في لوحة الإعلانات، وأحيانًا أقدم البرامج البسيطة في الإذاعة الجامعية.

لكن أكثر ما كان يُشعرني بالانتماء هو العمل التطوعي، كنتُ أؤمن بأن الخير لا يحتاج مالًا، بل نيةً فقط، صرتُ أتنقّل بين المؤسسات والجمعيات، أساعد على حملات الإغاثة بعد الحرب، أوزّع الطعام على العائلات المتضررة، وأرافق الأطباء في الأزقّة الفقيرة كمصورٍ متطوع يوثق لحظات العطاء، كنتُ أرى في عيون الناس شيئًا غريبًا، خليط من الخجل والامتنان، فأشعر أني أملك كنزًا لا يُشترى.

كل مرة كنت أعود فيها إلى البيت متعبًا، كانت أمي تقول لي وهي تبتسم:

"تعبك مش خسارة يا صالح، ربنا شايف".

ومع الوقت، صرت معروفًا بين زملائي في الجامعة بصفتي "يلي دايمًا بساعد". حيث إن أي مشروعٍ خيري أو نشاطٍ إعلامي، أكون أول المشاركين به، كنتُ أؤمن أن الكاميرا ليست أداة توثيق فقط، بل وسيلة رحمة؛ لأنّ الصورة من الممكن أن تكون سببًا في صدقة، أو حملة تبرع، أو حتى دعاء.

أحيانًا كنتُ أذهبُ للمخيمات وأجلس مع الأطفال، أرسم وجوههم بالكاميرا وأضحك معهم، وأسألهم عن أحلامهم الصغيرة، وأسمع إجاباتهم الموجعة والمضحكة في الوقت ذاته.

طفلٌ يقول:

"بدي أصير طيار، أطير فوق غزة وما أرجع".

وآخر يقول:

"بدي أصير مصور زيك يا صالح، أصور العالم لما يكون حزين".

كنتُ أقول لنفسي حينها:

"يمكن الله ما خلقني أقاتل بالسلاح، بس يمكن خلقني أقاتل بالصورة".

شاركت في الأشياء كلها التي أشعر أنه يجب أن أكون بها، تنظيف الطرقات، توزيع المساعدات، زيارات دور الأيتام، حملات تغذية للنازحين، وحتى ورشات إعلامية عن الحقيقة في زمن الحرب. وعليه أتعلم من كل تجربة شيئًا جديدًا عن نفسي، وعن الناس، وعن المعنى الحقيقي لكلمة "وطن".

ورغم التعب، شعرتُ بأنني في مكاني الصحيح، فأقول بِسِرّي:

"مش مهم وين أوصل، المهم أكون نافعًا".

أمّا أخي الأكبر ناجي الذي ولد في 3/7/1993، كان أيضًا قد التحق بهذه الجامعة قبلًا مني؛ فهو يكبرني بأربع سنوات، كان بالنسبة لي أكثر من مجرّد أخ؛ كان ظلّي حين أضيع، وسندي حين أتعب، وركني الثابت في عالمٍ يكثر به الاهتزاز.

منذ طفولته، حفظ ناجي القرآن كاملًا، وكان أبي يحدّثنا بفخرٍ عنه: "هذا ابني، كلام الله في صدره".

نشأ ناجي بين صفحات المصحف كما ينشأ الغصن في نهرٍ صافٍ، حفظ الكلمات فحفظته، وغرس فينا الإيمان بالقدر والطمأنينة في العاصفة. كان ناجي قويًا في إيمانه إلى حدٍّ يجعل حضوره يبعث السكينة، وحين كان يتحدّث، كنتُ أشعر أن كلامه يخرج من مكانٍ نقيٍّ في القلب، كأنه لا يقول الأشياء، بل يُنيرها.

لم يدرس الصحافة مثلي، اختار طريقًا آخر، تخصّصًا مختلفًا، وهو الشريعة الإسلامية، لكنّه ظلّ قريبًا من كلّ ما أحب، يتابع شغفي بالكاميرا ويشجّعني على المضيّ في ما أؤمن به.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كان يؤمن أن الله خلق لكلٍّ منّا سبيلًا لخدمة الناس، فهو يخدمهم بعلمه، وأنا بالكلمة والصورة.

كان ناجي عاقلًا، متزنًا، يحمل من الهدوء ما يسكّن القلق، وفي كلّ مرةٍ كنتُ أندفع فيها بحماسة الشباب، كان يبتسم ويقول لي بلطفِ الأب الكبير:

"اهدأ يا صالح، لا تُسرِع إلى العالم، سيأتيك دورك حين يُناديك الله في وقته".

كنت أراه قدوتي في كلّ شيء، في صبره، في إيمانه، في نظرته الرحيمة للناس، وفي احترامه لكلّ رأيٍ مهما خالفه، كان لديه يقينٌ غريب، كأنّه يرى ما لا نراه، يبتسم وسط الخطر، ويقول: "من كان مع الله، لا يُهزم".

رغم انشغاله بدراسته وعمله، لم يبتعد عنّي يومًا، كان يسألني عن محاضراتي، وعن مشاريعي الجامعية، يقرأ معي مقالاتي وتصويري، ويصحّح لي الأخطاء بصمتٍ لا يخلو من فخرِ أخويٍّ جميل، كنتُ حين أراه يتأمّل صوري أو يقرأ نصوصي، أشعر أنني أمام امتحانٍ صعب، لأنّ مديحه غالٍ، وثناؤه لا يُقال إلا حين يكون صادقًا.

وعندما يقول لي "أبدعت"، كنتُ أسمعها كأنها شهادةٌ من السماء، كان ناجي بالنسبة إليّ الجبل الذي لا يتحرّك مهما اشتدّت الريح، وجوده في حياتي كان يمنحني ثقةً لا تشبه شيئًا آخر، كأنّي مهما تعثّرت أو سقطت، سيظلّ هو هناك يمدّ يده قبل أن أطلبها، كنا نختلف أحيانًا، لكنه اختلاف المحبّة، العقل في جانبه، والعاطفة في جانبي. هو يُفكّر قبل أن يخطو، وأنا أخطو قبل أن أفكّر، لكنّنا كنّا نلتقي دائمًا في المنتصف، في كلمةٍ بسيطةٍ نرددها معًا: "ما دمنا مع الله، لن نضيع".

لم يكن مجرّد أخ، كان مرآتي التي أرى فيها نفسي حين تتعب، وصوت الإيمان الذي يذكّرني بمن أكون حين أنسى، كان الهدوء الذي يوازن فوضاي.

كبر ناجي على نور القرآن، حتى صار نوره ظاهرًا في صوته ونظره وسيرته. كان إذا قرأ، سكن البيت كلّه، وإذا أمّ الناس في الصلاة، شعرَ كلّ

من خلفه أن السماء أقرب إليهم من الأرض. ومع مرور السنوات، أصبح إمامًا وخطيبًا في أحد مساجد غزّة، صوته من على المنبر كان هادئًا وواثقًا، لا يعلو كثيرًا، لكنّه يصل إلى القلب بعمقٍ غريب، كأنّ كلماته لا تُسمع بالأذن، بل تُلامس شيئًا في الداخل.

لدرجة أن الناس كانوا ينتظرون خطبته كما ينتظرون نسمة هواءٍ بعد حرٍّ طويل. قال أحدهم يومًا: "حين يتكلّم ناجي، نسمع كلامًا من الأرض، لكنّنا نشعر أنه من السماء".

إيمانه كان صلبًا كالجبل، لا تهزّه الحروب، ولا تُطفئه الخسائر. وحين تضطرب الدنيا، يكتفي بابتسامةٍ وعبارةٍ قصيرةٍ يردّدها دائمًا: "من كان مع الله، لا يُهزم".

لم يكن ناجي قاسيًا رغم شدّته، بل كان الحنان نفسه في هيئة رجلٍ قويّ. إذا أخطأتُ، لا يوبّخني، بل يكتفي بأن يضع يده على كتفي ويقول: "تعلّم يا صالح، لكن لا تكرّر الخطأ نفسه أمام الله".

كان نَفَسه طويلًا في الصبر، وصوته الخافت في الدعاء يملأ البيت سكينةً لا تُوصَف. كنتُ أستيقظ أحيانًا في الليل فأسمعه

يقرأ وردَه من القرآن، وأرى في وجهه ضوءًا لا يشبه ضوء المصباح، كأنّ الله وضع في ملامحه أثر السجود والرضا.

ناجي كان المعنى الهادئ للحياة وسط فوضى العالم. كان قوّتي حين أنهار، وحكايتي حين أحتاج أن أتذكّر من أكون.

كان إيمانه يربّيني دون كلام، وحضوره يعلّمني أن الثبات عبادةٌ لا يتقنها إلّا من عرف الله حقًّا.

لقد كان ناجي الإمامَ في المسجد، وكان في بيتنا الإمامَ في القلب، وكلّما سمعته يقول في الدعاء:

"اللهم احفظ إخوتي، وكن لهم كما كنت لي".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كنتُ أؤمن أنّ الله سمعه فعلًا؛ لأنّ الدعاء الخارج من قلبٍ مثل قلب ناجي، لا يُردّ.

أمّا ياسمين فقد ولدت في التاسع من كانون الثاني عام 1995، قبل أن تعرف الحرب طريقها إلى وعينا، وفي زمنٍ كانت فيه غزّة لا تزال تتنفس الأمل رغم الجراح، جاءت إلى الدنيا كأنها وعدٌ صغيرٌ بالسلام، طفلةٌ هادئة الملامح، واسعة العينين، تشبه الشتاء في رقّته، والربيع في دفئه.

كبرت ياسمين بسرعةٍ، لكنّها لم تفقد شيئًا من طفولتها، كان وجهها يحمل براءةً لا تغيب حتى وهي تتحدّث بجدّية، وصوتها يُشبه الدعاء حين يُقال في منتصف الليل.

درست في الجامعة الإسلامية في غزّة أيضًا، واختارت تخصّص البصريات، كأنها كانت تبحث منذ البداية عن شيءٍ أعمق من الرؤية، عن نظرةٍ تُعيد للعالم وضوحه بعد الغبش، وللناس نورهم بعد الظلام. كانت تقول دائمًا مازحةً حين نسألها عن سبب اختيارها للتخصّص:

"لأنني أحبّ أن أرى الناس يرون بوضوح، العين نافذة القلب يا صالح".

كانت مجتهدة في دراستها، تحبّ العلم كما تحبّ العطاء، تحمل كتبها كما يحمل المؤمن سلاحه، وتعامل زملاءها برفقٍ يجعلها قريبةً من الجميع.

كانت إذا جلست إلى صديقةٍ حزينة، تقول لها: "العين التي ترى الله في كلّ شيء، لا تُصاب بالعمى أبدًا".

وعلاقتي بها كانت مزيجًا من الطفولة والاحترام، فهي تكبرني بعامين، لكنّها لم تتعامل معي يومًا كطفلٍ أصغر، بل كصديقٍ تُثقله الحياة أحيانًا، فتخفّف عنه بنظرةٍ، أو كلمةٍ، أو حتى بصمتٍ دافئ. كنتُ ألجأ إليها حين أضيع بين اختياراتي، فتُصغي كأنّها تسمع قلبي لا كلامي، وتقول لي دائمًا:

"افعل ما يُرضي الله أولًا، ثمّ ما يُريحك ثانيًا".

ياسمين كانت الجزء المشرق من البيت، تحمل في حضورها طمأنينة

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الأم، وفي غيابها فراغًا لا يُملأ، هي التي علّمتنا أن الحنان قوّة، وأنّ الكلمة اللطيفة يمكن أن تُصلح ما عجزت عنه الحروب.

كانت الأخت التي تشبه الفجر في طريقتها للحديث، هادئة، رقيقة، وحاضرة في القلب كما الضوء في النافذة.

لم تكن تكبرني كثيرًا، لكنّها كانت تبدو أكبر من عمرها في حكمتها، وأقرب إليّ من كلّ الناس في فهمها لي.

كنتُ إذا عدتُ من الجامعة متعبًا أو مشغول البال، تلقاني بابتسامةٍ تُعيد ترتيب فوضاي دون أن تسأل شيئًا، فهي تمتلك موهبة نادرة في الإصغاء، تسمعك وكأنّ كلامك الأوّل في الدنيا، وتواسيك دون جملٍ طويلة أو محاولاتٍ لتغيير الموضوع، بل بصمتٍ بسيطٍ يقول كلّ ما لا يُقال.

كانت بالنسبة لي الملاذ الذي ألوذ به حين تضيق الدنيا، والوجه الذي لا يشيخ مهما أثقلتنا الأيام فهي أمي الثانية، وصديقتي التي لا تخون السرّ، وأختي التي تملك من الحنان ما يكفي لأن تُخفّف عن العالم لو استطاعت، كم من مرةٍ جلستُ أمامها أروي ما رأيتُ في الميدان من مشاهد القصف والموت، فتنصت بعينين ممتلئتين بالدمع، ثم تقول لي بصوتٍ واثقٍ رغم رعشته:

"الله اختارك لتشهد، فلا تخف، من يرى الحقيقة، لا يموت مرتين".

كانت تُحبّ أن تَسمعني وأنا أقرأ القرآن، تجلس في الشرفة الصغيرة وتقول مبتسمة:

"صوتك لما تقرأ بشبه المطر، بغسل التعب عن القلب".

فأضحك، وأردّ عليها:

"وحنانك بشبه الدعاء لما يوصل قبل الكلام".

كانت تهتمّ بي بطريقةٍ لا تشعرني بالضعف، بل تُعيد لي الإيمان بأنّ القلب هو أقوى ما في الإنسان، تحضّر لي طعامي إن تأخّرتُ في الدراسة،

وتنتظرني لأخبرها عن كلّ جديدٍ في الجامعة، تسأل عن أصدقائي، وعن صوري، وعن مشاريعي الصغيرة، وكأنّها تُشارك في كلّ تفصيلٍ من حياتي.

وفي البيت، كانت محور الهدوء، هي التي تُصلح بين إخوتها، وتُطفئ نار الخلاف بكلمةٍ أو نظرةٍ تحمل شيئًا من العتاب وكثيرًا من الحب، كانت أمي تقول دائمًا:

"لو لم تُخلَق ياسمين، لانكسر البيت في أول عاصفة".

ولم يكن أحد يجرؤ على الاعتراض، لأننا كنّا نعرف أن وجودها يشبه الخيمة التي تظلّل الجميع.

علاقتها بإخوتي كانت مزيجًا من الصداقة والرعاية، تشاركهنّ أسرار القلب، لكنها تبقى الأكثر نضجًا بينهنّ، تخاف عليهنّ كما تخاف الأم على بناتها، وتواسيهنّ كما تُواسي اليد جرح الإصبع، كانت تُعدّ القهوة لهنّ في المساء، وتقول مازحةً:

"أريد أن أشرب السكينة معكنّ قبل أن يسرقها العالم".

لم تكن ياسمين تتكلّم كثيرًا، لكنّها كانت تفعل كثيرًا دون أن تُعلن ذلك، حين تمرض أمي، كانت أول من يسهر عند رأسها. وحين يتعب أبي من العمل، تُحضّر له طعامه بصمتٍ رقيقٍ يملأ المطبخ دفئًا، كانت تعرف ما يحتاجه كلّ واحدٍ منا قبل أن نطلب، وتمنحنا أكثر مما نتوقع، كنت أتباهى بها، وأقول:

"أختي تدرس لتعيد للناس نور عيونهم".

كنت أظنّ أن البصريات مجرد مهنة، لكنني كبرتُ لأفهم أنها كانت فلسفة حياتها، كانت ترى النور في الناس، حتى في أكثرهم ظلمة، وتبحث عن الجانب الطيّب في كلّ شيءٍ حولها.

وحين صارت تعمل في مجالها، صارت أكثر وعيًا بالناس من حولها، كانت تحكي لنا قصصًا عن المرضى الذين عالجتهم، عن امرأةٍ عجوزٍ بكت حين

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

رأت أولادها بوضوحٍ بعد سنواتٍ من الغبش، وعن طفلٍ قال لها:

"شكراً لأنك رجعتيني لأشوف السماء".

وحين كانت تروي تلك القصص، كنا نرى في وجهها الفرح الممزوج بالعطف، كأنّ الله وهبها قلبًا يرى أكثر من العيون التي تُعالجها، فهي تملك موهبةً خفيّة في قراءة الناس. تشمّ الحزن من بين كلماتهم، وتعرف من نبرة الصوت إن كان أحدنا يخفي وجعًا، وحتى حين نكابر، كانت تكتفي بنظرةٍ طويلةٍ تقول:

"أنا هنا، لا داعي لأن تتظاهر بالقوّة".

لم يكن البيت بيتنا من دونها، فهي التي تجعل الوجع قابلًا للسكوت، والفرح له طعم، والحياة شيئًا يُحتمل مهما ثقلت أيامنا، كانت حنونة إلى درجةٍ مخيفة؛ لأنّ من يُحبّ مثلها لا يعرف كيف يحمي نفسه من الخذلان.

ومع ذلك، بقيت قوية، تلك القوّة التي لا تحتاج إلى صراخٍ ولا إلى إثباتٍ، قوّة الإيمان، والرضا، والقدرة على النهوض في كلّ مرةٍ بعد الانكسار، كانت تقول لي دائمًا حين أتذمّر من الحرب والضيق:

"كلّ ما نراه من ظلمةٍ في الأرض، لا تُطفئها إلا نيّةٌ صافيةٌ في القلب".

أمّا إسراء، فولدت في الثالث والعشرين من آب عام 2000، اليوم الذي دخل فيه الضوء بيتنا، ولم يخرج بعده أبدًا.

كانت أصغر منّا، لكنها لم تكن الأصغر في الوعي ولا في الحنان، في الحقيقة، كانت تشبه الفجر حين يطلّ على المدينة المتعبة، هادئًا، لكنه يُغيّر كلّ شيء.

إسراء كانت ابنة البهجة، ولم تكن بهجتها صاخبة، بل هادئة، كالماء الذي ينساب دون أن يصنع ضجيجًا، إذا نظرتَ في عينيها، شعرت أنّها ترى ما وراءك لا ما أمامك. كانت تملك تلك النظرة التي تُربكك؛ لأنها تفهمك أكثر مما تفهم نفسك، درست التحاليل الطبية في الجامعة الإسلامية، تخصّص

اختارها قبل أن تختاره، كانت تقول دائمًا:

"أنا لا أريد أن أعالج الناس فقط، أريد أن أفهمهم من الداخل، أن أرى ما يُخفيه الجسد حين يختبئ القلب خلفه".

كانت ترى في المختبر حياةً صغيرة، العيّنات عندها ليست أنابيب دم، بل قصص لأناسٍ يواجهون الحياة بطريقتهم الخاصة.

وحين تروي لنا تفاصيل يومها، كانت تستخدم لغةً تشبه الشعر:

"اليوم دمعة طفلٍ صغيرة تحوّلت إلى عيّنة، وغداً قد تتحول إلى شفاء".

إسراء لم تكن تترك أحدًا حزينًا، كانت تشعر بالحزن من خطواتنا قبل أن نتكلم، تقترب بصمتٍ، تلمس كتفك بخفّةٍ تقول أكثر من أي كلام، وتهمس:

"مش لازم تكون قوي طول الوقت، الله شايفك".

لم تكن تبكي أمام أحد، لكنها كانت تبكي لأجل الجميع، كانت تبكي حين تسمع خبر شهيدٍ لا تعرفه، وحين ترى أمًّا تبحث عن ابنها في الأخبار، وحين تنقطع الكهرباء في الليل فتبقى أمي تصلي على ضوء شمعةٍ، فكانت تجلس قربها وتمسك يدها بصمتٍ، كأنّها تقول لله دون كلمات: "احفظها كما أحفظها أنا".

كنتُ أراها تمشي في البيت كأنها لا تمسّ الأرض، خفيفة، لا تُسمع خطواتها، لكنّها تترك خلفها أثرًا لا يُمحى، هي لا تتحدث كثيرًا، لكن حين تتكلم، تشعر أن الكلمات خرجت من مكانٍ طاهرٍ لا يعرف القسوة، كانت علاقتها بي تشبه النسمة التي تأتي دون موعد، لم تكن توبّخني، لكنّها كانت تعرف كيف تجعلني أشعر بالذنب إذا قصّرت، وكيف تزرع في قلبي حافزًا لأكون أفضل.

حينما كنتُ أعود من الميدان متعبًا، كانت تنتظرني بشاي النعناع، تضعه أمامي وتقول: "اشرب وارتاح، بكرة بتكمل، غزّة ما بتحتاج أبطال بس، بتحتاج ناس تضلّها تحبها رغم التعب".

إسراء كانت تشبه النور، لا تحتاج أن تبرهن على وجودها، يكفي أن تُفتح عينك لتراها، كانت تحفظ أسماء الأطفال الذين يعالجهم المركز، وتكتب لهم بطاقات صغيرة بخطّ يدها: "سلامتك يا بطل".

وحين أسألها عن السبب، تضحك وتقول: "الدواء بشفي الجسم، بس الكلمة الحلوة هي يلي بتشفي القلب".

حين كنت أراها تقرأ القرآن، كنت أشعر أن كلّ ما حولها يصمت احترامًا، تقرأ ببطءٍ وكأنها تحاور الله لا تتلو عليه.

وعندما ترفع يديها في الدعاء، كنتُ أرى في عينيها يقينًا يجعلني أؤمن أكثر، إسراء لم تكن أختًا فقط، كانت لحظة سلامٍ تمشي على قدمين، هي التي تجعل من الحزن شيئًا محتملًا، ومن التعب طريقًا إلى الطمأنينة، وحين أضيع بين ضجيج العالم، يكفيني أن أسمع صوتها تقول: "ما في شي بضيع عند الله، حتى دموعك الصغيرة".

كلّ بيتٍ فيه ضوء، فأما بيتنا فكان به إسراء. وذاك كان كافيًا ليجعل الحياة ممكنة. لتأتي بعد هذا كلّه الأقرب إليّ، ميساء، ابنتنا الرقيقة التي كان حضورها مثل نسمةٍ في بيتٍ مزدحمٍ بالأصوات، وُلدت في السادس من حزيران عام 2003، في يومٍ بدا وكأنّ الله أراد أن يُرسل إلينا قطعةً من الطمأنينة، فتجلّى ذلك في عينيها حين فتحتاهما لأوّل مرّة، كانت ميساء ثالث الأصوات الأنثوية في البيت بعد ياسمين وإسراء، لكنها حملت شيئًا مختلفًا عن الجميع، روحًا فيها خفّةُ الأطفال وحكمةُ الكبار.

درست ميساء تكنولوجيا المعلومات في الجامعة الإسلامية، فمنذ طفولتها كانت تعرف كيف تجعل حولها هدوءًا لا يُفسَّر، تضحك فتُضيء الغرفة، وتغيب فيصبح كلّ شيءٍ باهتًا كأنّها الضوء نفسه.

كانت لا تحبّ أن تكون في مركز الاهتمام، لكنّها كانت دائمًا في القلب، دون أن تحاول، تسمع الجميع أكثر مما تتكلم، وحين تتكلم، تقول الجملة التي تُصلح الموقف دون أن تَجرح أحدًا، كانت تمتلك قدرةً نادرة على تهدئة

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الأرواح، كأنّ الله وضع في كلماتها شيئًا من البلسم، كبرت ميساء في بيتٍ مليءٍ بالحبّ والإيمان، لكنّها كانت الألطف في التعبير عن مشاعرها، تحضن أمّي كل صباحٍ قبل أن تخرج، وتقبّل رأس أبي حتى لو كان منشغلًا، وحين يعود متعبًا من عمله، تجري نحوه وتقول له:

"اشتقنالك بابا، ارتاح شوي وأنا بجيبلك الشاي".

فتضحك أمّي، ويضحك هو، ويعود للحياة في تلك اللحظة البسيطة، كانت قريبة من إخوتي جميعًا، لكنّها كانت تملك في تعاملها مع كلّ واحدٍ منّا أسلوبًا مختلفًا، مع ناجي، كانت تُصغي له بإعجابٍ يشبه التلميذة التي تتعلّم من معلمها، ومع ياسمين، كانت تشاركها الضحك والمطبخ والأحاديث الطويلة عن الأحلام، أما مع إسراء، فكانت صديقتها الأقرب، تُساعدها في ترتيب البيت وتمازحها في تفاصيل صغيرة لا يفهمها سواهما.

أما أنا، فكنتُ أراها انعكاسًا للجانب الطفولي الذي حاولت الحرب أن تُخفيه فيّ، كنتُ أشعر أنّها وُجدت لتُذكّرني أنّ العالم ما زال صالحًا للحبّ، حتى لو بدا كلّ شيءٍ من حولنا رمادًا.

كانت تقول لي دائمًا حين أعود متعبًا:

"ما بخاف عليك، الله دايمًا مع يلي نيّتهم طيبة".

كنت أبتسم، وأفكّر كم تحتاج غزة إلى قلوبٍ مثل قلبها لتظلّ واقفة، كبرت ميساء وهي تُشبه الدعاء الذي لا يُقال بصوتٍ عالٍ، فيها هدوء المآذن بعد الأذان، وفيها لطفُ النسيم بعد الغبار، كانت ترى الخير في الناس، حتى أولئك الذين لا يرونه في أنفسهم، وتحبّ أن تُشارك في كلّ شيءٍ بسيطٍ يجعل الآخرين سعداء.

كانت تقول لي:

"كلّ واحد فينا فيه إشي حلو، بس يمكن لسه ما طلع".

وأنا كنت أصدّقها؛ لأنّ مجرّد وجودها كان برهانًا على أنّ الجمال لا يحتاج

تفسيرًا، يكفي أن يكون.

ميساء لم تكن آخر العنقود، لكنها كانت جسرًا بين الطفولة والنضج، بين ضحكة الصغار وحكمة الكبار، بين الحرب والحياة، كانت نغمة البيت التي لا تغيب، والمساحة البيضاء التي نرتاح لها بعد كلّ ضجيج.

كلّ بيتٍ يحتاج شخصًا مثل ميساء، يبقي الحبّ حيًا حين تذبل الأشياء، ويذكّرنا أن الخير لا يموت، بل يتوارى أحيانًا في ملامح فتاةٍ صغيرةٍ تضحك ببساطةٍ كأنّها لا تعرف كم تُنقذنا تلك الضحكة.

من بين كلّ إخوتي، كانت ميساء الأقرب إليّ، لم يكن الأمر قرارًا أو ترتيبًا عائليًا، بل شيء حدث ببساطة، كأنّ قلوبنا وُلدت متجاورة، ميساء كانت أكثر من أخت، كانت جزءًا من يومي، من صمتي، من ضحكتي الخافتة حين يثقل العالم عليّ، هي الوحيدة التي لم تسألني حين تسكنني الحيرة، بل كانت تعرفها من طريقة تنفّسي، وتجلس إلى جانبي دون أن تقول شيئًا، ثمّ تضع كوب الشاي أمامي وتهمس:

"اشرب، كل إشي بتصلّح مع الوقت".

كنت أشعر أنّها تشبهني بطريقةٍ لا أعرف تفسيرها، فهي ترى الناس كما أراهم، تقرأ الوجوه، وتفهم ما بين الكلام، ربما لهذا كانت الأقرب إلى قلبي، ولأنها أيضًا لم تخف من حزني، ولم تبتعد حين اكتأبت، بل اقتربت أكثر، كأنها تخاف أن أضيع إن تركتني وحدي، في الوقت الذي كانت فيه أخواتي مشغولاتٍ بدراستهنّ، كانت ميساء أكثر من يقضي الوقت معي.

تحبّ أن ترافقني في مشاويري الصغيرة، كانت تقول دائمًا:

"بحب أكون جنبك، بحسّ الحياة أهدى".

حين بدأت أعمل في التصوير والعمل الميداني، كانت أول من يشاهد ما أصوّره، وأكثر من يفهم ما خلف الصور. تنظر إليها بعينٍ مختلفة، وتقول:

"هاد مش مشهد حرب، هاي روح ناس بعدها بتحلم".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

وكان كلامها يُدهشني دائمًا، كأنها تعرف ما كنت أحاول قوله بالكاميرا دون أن أشرح، كانت تُشاركني همومي الصغيرة: تعب اليوم، تعب الكاميرا، تعب الناس. وأحيانًا كانت تمسك دفتري الجامعي وتكتب عليه بخطها الصغير: "ما ذمت تكتب وتحبّ، مش ممكن تنكسر".

كنت أحتفظ بها، وأحيانًا أفتح تلك الأوراق في ليالي الحرب الطويلة لأتذكّرها، ميساء كانت أختي، لكنها أيضًا كانت صديقتي التي تفهم الصمت أكثر من الكلام. معها فقط كنت أستطيع أن أكون نفسي، بضعفي، بتناقضاتي، بشكّي وإيماني في الوقت نفسه، كانت تقول لي:

"مش لازم تكون قويّ كل الوقت، خليك إنسان، والله بكملك".

كنت أضحك وأهزّ رأسي، لكنّ كلامها كان يرسخ في داخلي أكثر من كلّ الخطب التي سمعتها في حياتي.

في الأوقات التي كانت الحرب تقترب فيها، كانت تخاف عليّ، لكنها لا تُظهر خوفها، تخفيه في الدعاء، كنت أسمعها أحيانًا تقول لأمي:

"الله يحميه وين ما راح".

فأشعر أن دعاءها هو الدرع الذي أحملُه دون أن أراه.

ميساء لم تكن فقط قريبةً منّي، كانت تشبه الامتداد الهادئ لروحي، حين كنتُ أرحل لأيّ عملٍ أو تغطية، كنت أودّعها كما يودّع المرء مرآته، لأنني كنتُ أعرف أنني سأفتقد نفسي حين تغيب هي، كانت أكثر من شاركتني تفاصيل الحياة الصغيرة، وهي وحدها التي رأتني في كلّ حالاتي: في الحماس، في اليأس، في الإيمان، في الخوف.

ومهما تغيّر الزمن من حولي، ظلت هي الثابتة الوحيدة، التي تذكّرني أنني لست وحدي وأنّ الحبّ البسيط، حين يكون صادقًا، يستطيع أن يُبقي الإنسان واقفًا، حتى في وسط الركام.

فأمّا آخر زهرة للبيت كانت علي، وُلد في تشرين الأوّل من عام 2007،

اليوم الذي اكتشفنا به أن البيت يستطيع أن يضحك من جديد، كان آخر العنقود، آخر المفاجآت التي أرسلها الله إلينا، هديةً صغيرةً بعد أعوامٍ من التعب والخوف، كان وصوله إلى الدنيا حدثًا عجيبًا، في الوقت الذي كانت فيه غزة تعيش على أنفاسٍ متقطعة، جاء هو كنفَسٍ جديد، صوتٌ صغيرٌ يصرخ في وجه الموت قائلًا:

"ها أنا هنا!"

كبر عليّ في بيتٍ مليءٍ بالأصوات والقصص، فصار مزيجًا من الجميع: ذكاء ناجي، وهدوء ياسمين، وحنان إسراء، وشغف ميساء، وشيءٌ مني أنا يشبه قلقي الأبديّ.

منذ طفولته كان كثير الحركة، مثلي تمامًا، لكنّ حركته لم تكن فوضى، كانت طاقةً حقيقية، حياةً تمشي على قدمين، يمتلئ البيت بصوته من الصباح إلى المساء، يتحدّث بلا توقف، يسأل عن كلّ شيء، يخترع كلماتٍ جديدة لا تشبه العربية ولا الغزّية، ويضحك حين نضحك عليه، كأنه يعرف أنه وُجد ليُضحكنا فحسب، أمي كانت تناديه "نور البيت"، وأبي يقول عنه مازحًا: "هذا الصغير رح يطلع قائد، بس لازم نعلّمه كيف يوقف شوي!"

فأما أنا، فكنتُ أراه بعينٍ مختلفة، كنت أراه المستقبل الذي نحاول حمايته كل يوم، كان يحبّني كثيرًا، يتبعني أينما ذهبت، يسألني عن الكاميرا، عن الصور، عن الأخبار، وعن أشياءٍ أكبر من عمره بكثير، ذات مساءٍ سألني:

"صالح، ليش العالم ما بتحب غزة؟"

صمتُّ طويلًا، ثم قلت له:

"لأنهم ما عرفوها مثلك يا علي، ما سمعوا ضحكتك لما تنادي أمي، ولا شافوا نور بيتنا لما ترجع من المدرسة".

هزّ رأسه بجدّيةٍ طفوليةٍ وقال:

"يعني لازم نخلّيهم يعرفوها، صورلهم إياها".

كان يحبّ المدرسة رغم صعوبتها، ويحفظ الأناشيد الوطنية بصوته الصغير، يغنّيها في فناء البيت وهو يرفع علم فلسطين من الورق المقوّى، ويصرخ من قلبه:

"تحيا غزة".

ثم يلتفت إليّ بفخرٍ طفوليّ ويقول:

"سمعتني يا صالح؟ صرت زيك".

في كلّ مرةٍ كنت أخرج فيها للتصوير أو العمل الميداني، كان عليّ آخر من يودّعني. يقف عند الباب، يرفع يده بعلامة النصر ويقول:

"ارجع بسرعة، لا تروح بعيد، ما بحب البيت من دونك".

وحين أعود، يركض نحوي كما لو كنت عائدًا من معركةٍ كبرى، ويصرخ ضاحكًا:

"رجع البطل".

فأحتضنه وأفكّر كم نحن بحاجةٍ لهذه البساطة، بساطةُ طفلٍ يرى في عودة أخيه انتصارًا على العالم كلّه، كبر عليّ ببطءٍ يشبه الحذر، تعوّد على صوت الطائرات قبل أن يتعلّم أسماء العواصم، وتعلّم أن يميّز نوع الصاروخ من صدى الانفجار، لكنه لم يفقد شيئًا من ضحكته، كان يواجه الخوف كما لو أنه جزءٌ من اللعبة، ويقول لأمي حين يقترب القصف:

"ما تخافي، أنا بحميكم".

في الليل، كان ينام قربها كأنه الحارس الصغير، وفي النهار يركض في الحيّ مع أصدقائه، يجمع بقايا المعادن من الأرض ليصنع منها لعبة، ويقول بفخرٍ:

"كلّ شيء مكسور بغزة، ممكن نصنع منه إشي جديد".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

عليّ لم يكن مجرد طفلٍ في بيتنا، كان الدليل على أن الحياة أقوى من الحرب، وأن الفرح، مهما حاصرناه، يجدُ طريقه دائمًا من خلال ضحكةٍ صغيرةٍ في بيتٍ غزّيٍ بسيط، حين أنظر إليه اليوم، أفهم تمامًا لماذا خلق الله الأطفال بعد كلّ حرب: ليذكّرنا أن الغد ما زال ممكنًا، وأننا رغم كلّ شيء، ما زلنا نعيش؛ لأنّ علي ما زال يضحك.

هؤلاء هم عائلتي، نحبّ بعضنا بعضًا، نمشي على درب الله وطاعته. أمّا أنا، طفولتي لم تكن هادئة، كنتُ مشاكسًا أكثر مما تحتمل أيّ أمّ صبورة، ومليئًا بالطاقة لدرجةٍ تجعل أبي يضع يده على رأسي كلّ مساءٍ ويقول مبتسمًا:

"هذا الولد رح يغلبنا كثير".

كنت أركض في الحيّ كما لو أن الشوارع مِلكي، أتسلق الجدران، وأقفز فوق الأسطح، وأعود إلى البيت كل أسبوعٍ بإصابةٍ جديدة، أذكر ذات مرة عدتُ ويدي مكسورة، ومرّةً أخرى قدمي ملفوفة بضمادٍ أبيض، وثالثةً برأسي مضمّدٍ من أثر سقوطٍ سخيف، كانت أمّي تقول وهي تضع الثلج على الجرح:

"يا صالح، إنتا بدك تجرب جسمك على كل إشي بالحياة؟"

وأضحك دون ندم، كأنني كنتُ أتعلّم من كلّ كدمةٍ معنى جديدًا للحرية، لم يكن بداخلي شرٌّ أبدًا، لكنّ كان طوفانٌ من الحيوية لا يعرف أين يذهب، كنتُ أعبث بكلّ شيءٍ من حولي، أفكّك الألعاب لأعرف كيف تعمل، وأعيد تركيبها بطريقةٍ تجعلها لا تعمل أبدًا، أزرع الحجارة في الحديقة وأنتظر أن تنبت، أحاول الإمساك بالعصافير بيديّ، وأصرخ على البحر كأنني أقدر على جعله يسمعني، أبي كان يبتسم رغم كلّ هذا، وأحيانًا يوبّخني بنظرةٍ حازمة، لكنّه في قلبه كان يعرف أنّ كلّ تلك الشقاوة، كانت طريقتي في اكتشاف العالم، وأمي، رغم قلقها الدائم، كانت تقول لي دائمًا وهي تضع يدي على صدرها: "بس تظلّك بخير، كلّ التعب بهون".

كنتُ كثير الطلبات في البيت، أطلب من إخوتي أن يحضروا لي الطعام، وتحديدًا "الأندومي" ولو في وقت متأخرٍ من الليل، كنت أطلب الكثير من إخوتي، الشاي، الماء، حتى أبسط الأشياء، كنت أشعر أنّ هناك طاقةً بداخلي لا يفهمها أحد، وكان ناجي يحاول السيطرة عليّ، يصرخ:

"صالح، قوم اخدم حالك".

ياسمين كانت تشتكي لأمي كلّ يومٍ من شقاوتي، وإسراء كانت تحاول أن "تربّيني" بطريقةٍ هادئةٍ لكنها تفشل دائمًا، أما ميساء فكانت تضحك عليّ، وتقول إنني لا أتعب إلا حين أنام، تلك الطفولة - رغم فوضاها- هي التي صنعت جزءًا كبيرًا منّي، تعلمتُ منها كيف أسقط ثم أكمل، وكيف يمكن للضحكة أن تكون أقوى من الجرح، كلّ ندبةٍ في جسدي كانت درسًا صغيرًا في النجاة، وكلّ كسرٍ كان تمرينًا على الصبر، وكلّ مغامرةٍ كانت بداية طريقٍ لشيءٍ أكبر لم أكن أعرفه بعد.

هذا أنا، صالح عامر الجعفراوي، كبرتُ وتغيّر حالي، من فتىً مشاكسٍ لا يهدأ له بال، إلى شابٍّ يبحث عن طريقٍ أوسع للحياة، عن معنى أعمق لكلّ ما حوله، حين التحقتُ بالجامعة الإسلاميّة، شعرتُ أنّني أبدأ حياةً جديدة بكلّ تفاصيلها، كنتُ محبوبًا بين زملائي، أنشئ العلاقات سريعًا، وأزرع الودّ في القلوب دون تكلّف، فأنا بطبيعتي أحبّ الناس، وأحبّ أن أرى البسمة على وجوههم، وأحبّ أكثر أن أشعر أنّ لي مكانًا بينهم.

كوّنتُ صداقاتٍ كثيرة، لكنني، رغم انفتاحي الكبير، كنتُ أحتفظ بجزءٍ من نفسي بعيدًا عن الجميع، ذلك الجزء الذي لا أشاركه إلا مع من أحبّ بصدق، وفي خضمّ الزحام الجامعيّ، ظلّ قلبي مشدودًا إلى أشياءٍ أكبر من الحصص والدروس، إلى الحلم، إلى العمل، إلى خدمة الناس، في البداية كنتُ متحمسًا للدراسة، أراجع المحاضرات، وأسهر على الكتب، لكن بعد سنتين بدأتُ أهمل بعض الشيء، أذاكر فقط عند اقتراب الامتحانات، أعتمد على ذاكرتي أكثر من أوراقي، ورغم ذلك، لم أفقد شغفي الحقيقيّ بالحياة، لم أتخلّ يومًا عن رياضتي المفضّلة "تنس الطاولة" كانت جزءًا منّي، كأنها

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

المرآة التي أرى فيها نفسي حين تضيع ملامحها وسط الزحام.

كلّما سنحت الفرصة، شاركتُ في المسابقات داخل الجامعة وخارجها، أحمل مضربي كأنّه امتدادٌ ليدي، وألعب بعينٍ لا ترى إلا الفوز الشريف والفرح النظيف.

وفي كلّ بطولةٍ كنت أرى فيها اسمي على لوحة النتائج، كنتُ أشعر أنّ غزة نفسها تبتسم لي من بعيد.

لم أكن أسمح لأيّ نشاطٍ إنسانيٍّ أو ترفيهيٍّ أن يفلت مني، كنتُ أول الحاضرين، وأكثرهم حماسًا وشغفًا، فإن أقاموا فعاليةً تطوعيةً شاركت، وإن نظموا ندوةً حضرت، وإن احتاجوا صوتًا يرفع الحماس كنت أنا الصوت، كنت أشعر أنّ الحياة لا تُعاش بالتردّد، بل بالمشاركة، بالعطاء، بالحضور، ومع كلّ يومٍ يمرّ، كنتُ أكتشف أنّ الجامعة ليست قاعاتٍ وجدرانًا فحسب، بل عالمٌ من الوجوه، والأحلام، والقصص التي تتقاطع وتفترق، كنتُ أرى في كلّ زميلٍ مرآةً لاحتمالٍ جديد، وأحاول أن أكون في حياة كلّ واحدٍ منهم أثرًا جميلاً لا يُنسَى.

ومع مرور الوقت، بدأ اسمي يُعرف في أروقة الجامعة، ذاك الشاب الذي يبتسم للجميع، ويشارك في كلّ شيء، ويحمل معه دومًا مضرب تنس وكاميرا صغيرة، يوثّق اللحظات لا ليتباهى بها، بل ليحتفظ بها كدليلٍ على أن غزة، رغم الألم ما زالت قادرةً على إنتاج الفرح.

كانت السنوات بين 2015 و2018 أكثر مراحل حياتي امتلاءً بالحركة والتجارب، كلّ عامٍ منها ترك في بصمةً لا تُمحى، كأنّ كلّ سنةٍ كانت تُعيد تشكيل روحي على طريقتها، في 2015 كنتُ الطالب المتحمّس الذي يرى الجامعة كعالمٍ من الاحتمالات، كلّ صباحٍ جديد كان بالنسبة لي مغامرة، أذهب مبكرًا، أشارك في الأنشطة، أضحك كثيرًا، وأعود إلى البيت متعبًا، لكنّ التعب كان يشبه السعادة، كنتُ أبحث عن مكاني بين مئات الوجوه، وكنت أشعر أنني أوجده كلّ مرةٍ بابتسامةٍ أو مبادرةٍ أو فكرةٍ بسيطة.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

بدأت ملامح حياتي تتضح أكثر، وصرت أعيش بين وجهين، وجهٍ جادٍ هادئٍ مع ناجي، ووجهٍ مليءٍ بالضحك والحركة مع أصدقائي، كانت علاقتي بناجي أقوى من أي وقتٍ مضى، كأنّ بيننا حبلًا من نورٍ لا ينقطع، كنت أراه يغوص في القرآن بطمأنينةٍ تُخيفني أحيانًا من شدّة نقائها، في تلك السنة، بدأ حفظ كتاب الله بجدٍّ وعزيمةٍ غريبة، حتى صار لا ينام إلا والمصحف على صدره، كنت أراقبه من بعيد وأشعر أن بيننا مسافتين، هو في طريق السماء، وأنا في طريق الحياة.

كنت أحبّه وأفخر به، لكني كنت مختلفًا عنه في طريقتي، كنت لا أطيق البقاء في مكانٍ واحد، روحي كانت مشتعلة كعادتي منذ الطفولة، أحبّ الشوارع المزدحمة، وأصوات الشباب، والضحك العالي، ذلك الجو الذي يُشعرني أنني ما زلت أعيش رغم كلّ شيء، صرتُ أقضي أغلب وقتي مع أصدقائي، كنا نلتقي في مقهى صغيرٍ على أطراف الحيّ، نجلس ساعاتٍ نحكي عن أحلامنا، عن السفر، عن الرياضة، عن الحياة التي نريدها بعد التخرّج، كان فيهم من يشبهني، وفيهم من يُشبه ما كنت أتمنى أن أكونه، أحيانًا كنت أنسى الوقت، أعود إلى البيت متأخرًا، وأجد أمي تنتظرني على الباب، تنظر إليّ بقلقٍ لا تخفيه، وتقول بلهجتها التي تخلط بين الحنان واللوم:

"يا صالح، يا صالح وبعدين معك؟ أبطّل أحبك يعني؟"

فأقتربُ منها مبتسمًا وأقول:

"ما بتقدري ما تحبيني يا أمي".

فتضحك، وتقول:

"غلبتني مثل دائمًا".

حتى في المناسبات العائلية، كنتُ أتأخر أو أتهرّب، كنت أرى تلك الجلسات مملّة مقارنةً بحيوية أصدقائي، فكان أبي يقول لي بصرامةٍ لا تخلو من الحبّ:

"رح تيجي معنا غصبًا عنك، العيلة أولى فيك من أصحابك".

وأضحك وأنا أرتدي معطفًا بسرعةٍ بلا اقتناع، ثم أذهب معهم متأففًا قليلًا، لكنني كنتُ أعلم في داخلي أنهم على حقّ، لم يكن في تمرّدٍ حقيقي، بل رغبةً في أن أعيش بطريقتي الخاصة، كنتُ أبحث عن صوتي وسط كلّ تلك الأصوات، بين القرآن الذي يُتلى في غرفة ناجي، وضحكات الشباب التي تملأ الشارع، كنت أشعر أنّني أقف على الحافة بين عالمين:واحدٍ يسحبني إلى الهدوء والإيمان، وآخرٍ يدعوني إلى المغامرة والحرية.

لكنّ ما لم أكن أدركه آنذاك، أنّ كِلَا العالمين كانا يصنعاني معًا، كانا يُهيّئانِي دون أن أعرف للرجل الذي سأصبحه في السنوات القادمة، حين يُطلب منّي أن أكون قويًا كناجي، وشجاعًا كأولئك الشباب الذين أحببتهم، في وجه قدرٍ لا يشبه شيئًا ممّا حلمت به، لم يكن عالمي كلّه جامعة وأصدقاء فقط، بل كانت هناك ساحةٌ أخرى تأخذني إليها روحي كلما ضاقت الحياة.

كانت تلك الساحة هي تنس الطاولة، اللعبة التي أحببتها كما يحبّ العاشق أول نظرته، كنتُ أتدرّب يوميًا في النادي الصغير، حيث الطاولات القديمة، والمضارب التي تآكلت أطرافها، لكنّ الحلم كان أكبر من الأدوات، كنتُ أرى نفسي يومًا أقف على منصةٍ دوليةٍ، أرفع علم فلسطين وأبتسمُ للعالم، شاركتُ في بطولاتٍ محليّةٍ عدّة في تلك السنة، واحدة في النصيرات، وأخرى في خان يونس، وثالثة في الجامعة الإسلامية نفسها، كنت أصل إلى النهائيات في أغلبها، أحيانًا أخسر بضربةٍ واحدة، وأحيانًا أفوز وأرفع الكأس كأنني حملت السماء على يديّ، لم يكن اللعب مجرّد تسليةٍ بالنسبة لي، كان طريقتي في المقاومة، في إثبات أنّ الفلسطيني يستطيع أن يكون بطلًا حتى وهو يعيش تحت الحصار، كنت أقول لنفسي وأنا أتدرّب:

"إذا ما قدرت أكسر الحصار بالحدود، بدي أكسره بالمضرب".

كنت أرى في الكرة الصغيرة صورة وطني، كلّ مرةٍ أقذفها في الهواء وأضربها بقوّة، كنت أشعر أنني أضرب الجدار الذي يحاصرنا، كلّ صوت

ارتطامٍ كان يوقظ بداخلي شيئًا من الأمل، في بعض الليالي، كنتُ أعود إلى البيت متعبًا، أضع الكأس الصغيرة على الطاولة وأبتسم، كانت أمي تلمسها بيديها وتقول لي:

"يا رب يا ابني، بيوم أشوفك بطل عالم".

فأذكر وقتها أنني قلت لها ضاحكًا:

"رح أصير يا أمي، مش راح أوقف، إذا مش بالتنس، بأشياء ثانية".

ثم قالت لي:

" يما بدي أحكي معك بموضوع".

فأخبرتها:

"أكيد يما هيني بسمعك".

قالت بصوتٍ ناعمٍ كأنّه يخرج من قلبها:

"صالح، ما تعبت من هالضجة برا؟ كل يوم تركض، وكل يوم بتصور، وكل يوم بترجع وجهك تعبان".

رفعت رأسي وابتسمت:

"ما بقدر أتعب يا أمي، في إشي جوّاي بحكيلي كمّل".

اقتربت مني وجلست أمامي، كانت يداها تَعبقان برائحة النعناع، وعيناها كأنهما تحملان عمرًا أطول من الحرب نفسها.

قالت وهي تُراقبني:

"ما بخاف عليك من الناس يا صالح، بخاف عليك من قلوبهم، القلب الطيب بجذب الوجع ".

ضحكتُ بهدوءٍ وقلت:

"يعني أوقف أحب؟"

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

قالت:

"لا، بس لما تحبّ خفّف؛ لأنه الحب الزايد يا ابني، بخلي الإنسان ما يشوف يلي جاي".

سكتنا قليلًا، كانت تنظر إليّ كأنها تحفظ ملامحي في ذاكرتها، سألتها مبتسمًا:

"ليش بتطلعي فيا هيك يا أمي؟"

قالت:

"بخاف من الوقت، بخاف يسرقك مني فجأة، ما بعرف ليش، بس حاسة إنه في إشي كبير جاي بحياتك، إشي رح ياخدك بعيد".

ارتجف شيءٌ ما في صدري، كأن كلماتها لم تكن خوفًا عاديًا، بل نبوءة لقدرٍ أعرف أنه يقترب، قلت محاولًا التخفيف عنها:

"يا أمي، ما رح أتركك لو شو ما صار".

ابتسمت وهي تضع يدها على خدي:

"أنا ما بخاف من البُعد، بخاف من التغيّر، ما بدي الحرب تغيّرك، ولا الناس تغيّرك، ولا وجع الناس يخليك تنسى نفسك. ضلّك صالح، الاسم يلي سميتك عليه كان عن قصد، كنت بدي إياك تضلّ صالح، مهما خرب كل إشي حوليك".

نظرتُ إليها طويلًا، كانت دمعةٌ صغيرةٌ تلمع في عينيها، لكنها لم تسقط، قالت وهي تنهض:

"روح نام يا ابني، بكرة يوم طويل، بس لا تنسى خلي ضوّك جوّاك، ما حدا لازم يطفيه".

لم أجب، فقط نظرتُ إلى صورتها وهي تتحرّك ببطءٍ نحو المطبخ، كنتُ أعرف أني سأسمع صوتها هذا في رأسي طويلًا، ربما في كلّ مرةٍ أسمع

فيها انفجارًا، أو أرى وجهًا بين الركام.

في تلك الليلة، لم أنم، كان الحوار به مع أمي ممزوجٌ بالحبّ والخوف، بالأمل والقلق، تارةً تسألني عن مباراتي، وتارةً عن الحب، ثم عن التصوير وتعبه وإرهاقه، فدخلت في حيرةٍ من أمري حول كل ما هو حولي، بقيت أسمع صدى كلماتها يطوف في الغرفة مثل دعاءٍ لا يُقال علنًا:

"ضلّك صالح... مهما خرب كل إشي حواليك".

في الصباح التالي، كان الفجر باهتًا، ضوءٌ خجولٌ يتسلّل من بين الغيوم الرمادية، وصوت المؤذّن يختلط بصفير الريح بين البيوت المهدّمة، خرجتُ من البيت بهدوء، تعلّقت نظرات أمي بي من خلف الباب، لم تقل شيئًا، لكنها كانت تُمسك المسبحة بيدها كما تفعل دائمًا حين تخاف.

خطوتُ إلى الشارع، والهواء باردٌ كأنّه يحمل نذيرًا لا يُفصح عنه، رائحة التراب المبتلّ والرماد يَملأانِ صدري، وصوت بعيد لانفجارٍ قديمٍ يتردّد في الأفق، تذكّرتُ كلماتها:

"ضلّك صالح... مهما خرب كل شي حواليك".

كأنها قالتها للعالم ليس لي وحدي، مشيتُ نحو شارع الوحدة، حيث الحياة هناك لم تعد حياة، بل انتظار، رأيتُ وجوهًا أعرفها، بائع الخبز الذي صار يحمل الدقيق في كيسٍ صغيرٍ كأنه يحمل قلبه، والطفل الذي يبيع المناديل وقد كبر فجأةً بعينيه، كلّ شيءٍ كان يشبهني، وكلّ شيءٍ كان يذكّرني أن أمي كانت على حق:

"أن الحرب لا تقتل الجسد فقط، بل تغيّر الروح".

أخرجتُ الكاميرا من حقيبتي، كانت يدي باردة، لكني شعرتُ أن الحرارة تعود إليها ما إن لمست العدسة. بدأتُ التصوير بلا هدفٍ محدّد، فقط غريزة أن أوثّق، أن أمسك هذا الخراب قبل أن يبتلعه النسيان.

كلّ مرةٍ كنت أضغط فيها زرّ التسجيل، كنتُ أسمع صوت أمي في داخلي:

"ما بدي الشهرة تغيّرك، ولا وجع الناس يخليك تنسى نفسك".

كنتُ أبتسم رغم الدخان. هي لا تعرف أن وجع الناس هو الشيء الوحيد الذي يُبقيني على قيد الحياة.

مررتُ قرب السرايا، وكانت السماء ما تزال غائمة، لكنّ الضوء الذي يتسرّب من بين الغيوم، كان يُشبه تلك النبرة في صوت أمي حين قالت لي:

"ضلّك صالح".

شعرتُ أن الله نفسه يكتب لي وصيّتها على الجدران.

في منتصف الطريق، توقّفتُ عند مجموعةٍ من الأطفال يلعبون بين الركام، أحدهم ركل حجرًا كأنه كرة، والآخر ضحك حتى البكاء، رفعتُ الكاميرا والتقطت الصور، كانوا يركضون في المكان الذي مات فيه العشرات قبل يومين، لكنهم لم يعرفوا ذلك، أو ربما عرفوا، لكنهم اختاروا اللعب بدل الحزن.

قلتُ في نفسي وأنا أراهم:

"يمكن هيك بتنجو غزة، مش بالقوة، باللعب".

حين عدتُ إلى البيت بعد الظهر، كانت أمي تُحضّر الطعام كأن لا حرب في الخارج، نظرت إليّ وقالت:

"شو صورت اليوم؟"

قلتُ مبتسمًا وأنا أضع الكاميرا على الطاولة:

"صورت الحياة وهي بتحاول تضحك، حتى لو وجعها أكبر من الضحكة".

اقتربت منّي، وضعت يدها على كتفي وقالت بهدوءٍ يشبه الدعاء:

"الله يثبّت قلبك يا ابني، الحرب الحقيقية مش يلي برا، الحرب جوّا الإنسان، بين الخوف والإيمان".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

لم أجبها، لكنّ عينيّ امتلأتا بالدمع؛ لأنني كنت أعرف أن حربًا أخرى بدأت فعلًا في داخلي، منذ تلك الليلة التي قالت لي فيها:

"ضلّك صالح، مهما خرب كل إشي حواليك".

كنتُ أعيش مع عائلتي في مربّع السرايا، في منتصف مدينة غزّة تقريبًا، المكان الذي يجتمع فيه كلّ ما تحمله المدينة من صخبٍ وذاكرة، مربع السرايا كان يشبه قلبًا كبيرًا، كلّ الطرق تمرّ منه وتعود إليه، من الجنوب يأتي شارع عمر المختار، ومن الشرق يمتدّ شارع الوحدة حتى مستشفى الشفاء، وفي الشمال يطلّ البحر من بعيد كنافذةٍ صغيرةٍ على العالم.

كانت منطقتنا مزدحمة، لكنها جميلة بطريقتها الفوضوية، بيوتٌ متلاصقة كأنها تخاف الفُرقة، وأزقّة ضيّقة لا تسع سوى المارّ وضحكته.

كنا نعرف الجيران جميعًا بالاسم، نعرف من يطبخ المقلوبة في يوم الجمعة، ومن يعلّق الغسيل بعد العصر، ومن يفتح دكّانه قبل الفجر بساعة.

قريبًا من بيتنا كان مبنى السرايا القديم، ذلك المكان الذي ظلّ شاهدًا على كلّ شيء، على الانتفاضات، والمواكب، والمظاهرات، وعلى وجوه الناس وهي ترفع شعاراتها، ثم تذهب إلى بيوتها المهدّمة لتكمل حياتها، وعلى بعد شارعٍ واحدٍ فقط، كان ميدان فلسطين، حيث تلتقي المدينة كلّ صباحٍ قبل أن تفترّق إلى أعمالها.

من هناك، إذا مشيتَ قليلًا نحو الغرب، تصل إلى شارع الجلاء، حيث المقاهي التي لا تنام، وصوت المآذن الذي يتقاطع مع أصوات المولّدات الكهربائية، ومن الشمال، إذا اتّجهت نحو تل الهوى أو الرمال، تبدأ رائحة البحر تختلط بالدخان، فتعرف أنك في غزة التي لا تستسلم، غزة التي تشمّ فيها رائحة الحياة والموت في أنفاسٍ واحدة.

مربع السرايا لم يكن حيًا عاديًا، كان نقطة التقاءٍ بين الذاكرة والواقع، في النهار صخبٌ، بائعو خضارٍ ينادون بأعلى أصواتهم،وأطفالٌ يحملون حقائبهم

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الصغيرة من المدرسة، ونساءً يبتعن الخبز ويضحكن رغم التعب، وفي الليل، حين تخفت الأصوات، تسمع المدينة تهمس، كأنّ الأرواح التي فقدناها تمرّ بهدوءٍ من الأزقّة نفسها، تتفقد بيوتها القديمة ثم تواصل طريقها إلى السماء، كان بيتنا قريبًا من شارع الثورة، على بُعد دقائق من ميدان السرايا نفسه، حيث تصطفّ الأشجار القليلة على الرصيف، وتُقاتل الغبار كما نقاتل نحن الحصار.

ومن سطح بيتنا، كنتُ أرى برج الشفاء من بعيدٍ، ومن خلفه مبنى البلدية وواجهة البحر الزرقاء، تلك الصورة كانت كافيةً لأشعر أن غزة، رغم كلّ شيء، ما زالت مدينةً جميلة، مدينةً تتزيّن بالألم لكنها لا تفقد أنوثتها أبدًا، أما أهل مربع السرايا كانوا يشبهون المكان، قساةً في ظاهرهم، طيبون في أعماقهم، يتشاجرون في النهار على موقف السيارات، ثم يُصلّون معًا في المساء، يتقاسمون الخبز والملح، ويعرف كلّ واحدٍ منهم أنّ الآخر هو ظله في وقت القصف.

حين كانت الحرب تقترب، كانت الأبواب تُفتح قبل أن يُطرق عليها، وكلّ بيتٍ يتحوّل إلى ملجأٍ للجيران، كأنّ الحبّ هناك عادةٌ أقدم من الخوف.

في 2016ازداد نضجي قليلًا، صرت أفهم الناس أكثر، وأفهم نفسي أكثر، بدأتُ أرى خلف الأحاديث الصغيرة همومًا حقيقية، فانضممتُ إلى فرقٍ تطوعية تعمل في خدمة الأسر الفقيرة وطلاب المدارس، كنت أشعر أن يَدي الصغيرة قادرةٌ، ولو قليلًا، على تخفيف وجعٍ كبير.

تعلمت أن العطاء ليس مجرّد فعلٍ، بل شعورٌ يُنقذك من أن تغرق في ذاتك، كانت هذه السنة مختلفة، هادئةً على نحوٍ غريبٍ في مدينةٍ لا تعرف الهدوء، ربما لأنّ الحربَ توقّفت قليلًا، أو لأنّ الناس اعتادوا الخوف حتى صار جزءًا من يومهم، لكنّ بيوتنا، رغم التعب، عادت تنبض بالحياة من جديد، في تلك السنة، كانت ياسمين تكمل فصلها الجامعي الأخير في الجامعة الإسلامية، كانت تمشي في البيت بثقةٍ ناعمةٍ تُشبهها، تحمل كتبها وكأنها تحمل العالم كله.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

أما إسراء، فكانت ما تزال في المدرسة، في عامها الثانوي، كانت مختلفة، روحها مشتعلة كعادتها، تستيقظ باكرًا وتغني وهي تُحضّر حقيبتها، تغار من ياسمين، لكنها في الوقت نفسه تفخر بها، كنت أراها تذاكر بحماس، ثم تملّ سريعًا وتبدأ تُخطّط أحلامها على الورق: مختبرٌ صغير، ثوبٌ أبيض، واسمها مكتوب على الباب:

"د. إسراء الجعفراوي".

كنت أضحك وأقول لها:

"إن شاء الله يا دكتورة غزة".

فتردّ بنظرةٍ فيها مزيجٌ من الجديّة والطفولة:

"أنا ما بمزح، رح يصير هيك عنجد!"

أما ميساء، الصغيرة الحنونة، كانت طالبةً في المدرسة أيضًا، تحبّ الألوان أكثر من الأرقام، وتملأ دفاترها بالرسومات بدل الإجابات، كانت الأقرب إليّ، تنتظرني كلّ يومٍ عند الباب حين أعود من الجامعة، تركض نحوي وتقول:

"صورت اليوم يا صالح؟"

وكنتُ أضحك وأنا أُريها بعض الصور، فتصفّق كأنها تُشاهد فيلمًا سينمائيًا، كانت ترى في كلّ صورةٍ حياة، وفي كلّ ظلٍ ضوءًا، كأنها تفهم أكثر من عمرها بكثير، أما عليّ، الصغير آخر العنقود، فكان ما يزال في المدرسة الابتدائية، يحمل في جيبه دائمًا كرةً صغيرة، ولا يعرف من الدنيا سوى اللعب والصراخ والضحك، كان وجوده في البيت يجعل كلّ شيءٍ أبسط، حتى أمي كانت تقول دائمًا:

"لولا عليّ، كان البيت نامًا من زمان".

في تلك السنة، كنا ما نزال نحلم، نعيش أيامنا بين الجامعة والمدرسة،

بين الكتب وضحكات المساء، نُخطّط لحياةٍ لم نكن نعلم أنّ الحرب ستأكل نصفها لاحقًا، كان بيتنا في مربّع السرايا ممتلئًا بالدفء، والحبّ فيه لا يحتاج إلى كلامٍ كثير، يكفي نظرةٌ من أمي، أو نداءٌ من ياسمين، أو ضحكةٌ من ميساء، ليُشعرني أنّ هذا البيت، مهما ضاق، فهو أغلى وطنٍ أملكه.

وفي يومٍ ما بعدما عدت من جامعتي متعبًا، دخلت إلى غرفتي لأستريح قليلًا، جلست خلف مكتبي، وأخذت أتصفّح في الحاسوب الخاصّ بي، تجوّلت بين الملفات القديمة حتى وجدت مجلدًا يحمل اسمًا بسيطًا:

"الثنائي المرح".

ضغطت عليه، فامتلأت الشاشة بصورٍ قديمةٍ، وأصواتٍ، أعرفها أكثر مما أعرف صوتي، ضحكتُ رغم أن قلبي انقبض، كم كنّا صغارًا وكم كبرنا فجأة، ظهر في المقطع الأول وجه فايز.. صوته، ضحكته، تلك النظرة التي تجمع بين الجدّ والمزاح.

لم أسمع اسمه منذ أسابيع، لكنّه ظلّ في رأسي كما هو، لا يتقدّم يومًا ولا يتأخر.

فايز، ذاك الصديق الذي لم يكن يومًا عابرًا في حياتي، بل ظلّ مثل مرآةٍ أرى فيها نفسي منذ كنّا طفلين في مدرسة المعتصم، تعرّفتُ عليه في الصف الخامس، يومَ تشاجرنا على من يقدّم الإذاعة المدرسية أولًا، حينها ظننتُه مغرورًا، وهو ظنّ أنني أتصرّف كمن يملك المسرح كله، لكنّ المعلم حسم الأمر وقال:

"بتقدّموها سوا". ومن تلك اللحظة، بدأ ما لم ينتهِ أبدًا.

سألني:

"شو حافظ أناشيد؟"

أجبته:

"عرس الشهادة".

ومن هُنا بدأنا، صرنا صديقين لا يفترقان، نضحك، ننشد، ونحلم أن يسمعنا العالم خارج أسوار المدرسة، كان فايز صوتي حين أصمت، وكنتُ عينيه حين يتردّد في المواقف، ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا، لم أعرف في حياتي شخصًا أقرب إليّ منه.

في سنة 2012 تحديدًا، قررنا أن نأخذ حلمنا الصغير خطوةً أكبر، أنشأنا قناة على اليوتيوب سمّيناها "الثنائي المرح"، اسمٌ ساذجٌ في ظاهره، لكنه كان يحمل صدقنا كله، كنا طفلين يملكان هاتفًا قديمًا وصوتين صغيرين، لكنّ الحلم كان أكبر من أعمارنا، سجّلنا عشرات الأناشيد الدينية عن غزّة والصمود والحرية، نُعيد التسجيل مرةً بعد مرة، وننتظر المعجزة مشاهدة واحدة، تعليق، أو حتى إعجابٍ من مجهول، كلّ إشعارٍ جديد كان يُشعل فينا فرحًا طفوليًا لا يُوصف.

ومع الوقت، بدأ الناس يسمعوننا حقًا، استضافتنا المدارس، ثم الإذاعات المحلّية، كانت إذاعة الأقصى أول من قدّمنا باسمٍ رسمي:

"الفنانان الصغيران من غزة، صالح وفايز".

ثم جاءت إذاعة القدس وإذاعة الأسرى، كنا ندخل الإستوديو بخطواتٍ صغيرةٍ وقلوبٍ كبيرة، ننشُد بصوتٍ واحدٍ كما لو أن كلّ غزّة تستمع إلينا.

تلك اللحظات ما زالت تعيش في داخلي، كلّ ابتسامةٍ، كلّ ارتباكٍ أمام الميكروفون، وحتى الخوف الذي كنّا نخفيه وراء الضحك.

كبرنا بعد ذلك، لكنّ كلّما رأيت وجوهنا الصغيرة على الشاشة، أشعر بمزيجٍ غريبٍ من الخجل والفخر، الخجل من سذاجتنا الجميلة، والفخر لأنّنا كنّا نؤمن بصدقٍ نادر، أنّ الصوت الصغير من غزّة يمكن أن يسمعه العالم يومًا.

ظللتُ أحدّق في الشاشة، والفيديو يتكرّر وحده كأنّ الزمن عالق فيه، صوتي وصوته متداخلان، ضحكتنا تطغى على الكلمات، مددتُ يدي نحو الهاتف دون أن أفكر، بحثتُ عن رقمه، وضغطت على زرّ الاتصال، رنّ الهاتف

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

طويلاً.

ثم جاء صوته، دافئًا كما أعرفه، وفيه بحّة تعبٍ أعرفها أيضًا. وقال:

"صالح! والله ما توقّعت أشوف اسمك بهالليل".

قلت له:

"ولا أنا توقّعت أتصل".

صمتنا قليلًا، كان صمته يشبه لحظة ما قبل النشيد، حين نأخذ نفسًا عميقًا قبل أن نبدأ الغناء. قلت له:

"كنت بتفرّج على فيديوهاتنا القديمة".

ضحك بصوتٍ عالٍ، ثم قال:

"قولتلك أمسحهم، فش حدا بصمد قدّام أصواتنا وإحنا صغار".

قلت له:

"ما قدرت يا فايز، كل ما أحاول، بحسّ كأني بمسح جزء منّي".

فقال لي:

"وإنت ليه بتتفرج عليهم اليوم بالذات؟"

ترددتُ للحظة، ثم قلت:

"يمكن لأني اشتقت، مش بس إلك، للحلم كمان، بتتذكّر لما كنّا نقول بدنا نوصل للعالم؟"

قال لي:

"كيف أنسى؟ بس شكلك وصلت قبلي يا صالح، ما شاء الله عليك الكل بعرفك، صحفي ولاعب تنس قوي".

ضحكتُ بخفوتٍ وقلت:

@ART_OF_BOOK

"الشهرة هون ما إلها طعم، يا فايز، الكاميرا بتصوّر الناس وهمه بموتوا، بس ما بتقدر تنقذهم".

سكت، ثم جاء صوته بعد ثوانٍ، هادئًا، يحمل صدقًا عميقًا:

"لسّا بتوثق يا صالح؟"

فقلت له:

"كل يوم بس تعبت".

قال لي بنبرةٍ مليئةٍ بالثقة:

"ما تتعب، إنت عينينا يا صاحبي. يمكن صوتي وقف، بس عدستك لسا بتحكي عنّا".

تجمّدت الكلمات في حلقي، نظرتُ إلى الشاشة التي توقّف عليها الفيديو: طفلان على خشبة المدرسة، نرفع الكوفيات ونغنّي: غزّة يا دار البطولة والمجد...

سألته:

"بتتذكّر الإذاعة الأولى؟".

أجابني:

"بتذكّر كل إشي، بتذكّر يوم صرنا نغنّي سوا وأنا مفكّرك بتكرهني".

قلت له ممازحًا:

"أنا فعلاً كنت أكرهك!"

أجابني:

"وطلعت بتحبني أكثر من الكل!"

وضحكنا معًا، ضحكةً طويلةً كأنها جاءت من زمنٍ آخر.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

ثم أنهينا المكالمة بعد وقتٍ طويلٍ من المزاح والضحك، لم أجد يومًا صديقًا حقيقيًا كما فايز، رفيق الطفولة والأحلام، ومن بقي يؤمن بي، حتى في أشدّ الأوقات تعبًا، كانت علاقتي بفايز عجيبة،كانت قويّة إلى درجةٍ تُرهق القلب أحيانًا، وصافيةً إلى حدٍّ يجعل الخلاف بيننا يبدو كجزءٍ من المحبّة نفسها، كنا نتشاجر كما يتشاجر الإخوة، مرةً على فكرة أغنية، ومرةً على موعد تصوير، وأحيانًا بلا سببٍ واضح، ربما لأنّنا كنا نقضي وقتًا طويلًا معًا أكثر مما يحتمل بشر، لم تكن تلك الخلافات تُشبه العداوة، بل كانت كأنها طقسٌ ثابتٌ بيننا، فترة صمتٍ قصيرةٍ، يعقبها صلحٌ بطعم الضحك والطعام، كنتُ أعرف متى يحزن، فهو لا يرفع صوته، لكنه يسكت بطريقةٍ أعرفها تمامًا، فأدرك أن عليّ أن أبدأ المكالمة.

"ولا؟ زعلان؟"

"مين زعلان؟"

"يعني مو باين!"

"بلاها دراما يا صالح".

"تمام، بس عندي كنافة، ومش رح أقدر أخلصها لحالي".

كان يسكت، ثم يضحك، ثم يقول الجملة التي تُنهي كل شيء:

"خمس دقائق وبكون عندك".

وهكذا كانت خلافاتنا تنتهي دائمًا بدعوةٍ صغيرةٍ، طبق كنافة، كوب شاي، وضحكة تُعيد كل شيء إلى مكانه الصحيح، كأنّ الله خلق صداقتنا لتُختبر وتنجو في كل مرة.

مرت السنوات، ولم تتغير طبيعة تلك العلاقة أبدًا، حتى وأنا في الجامعة، بعدما صار لكلٍّ منّا طريقٌ مختلف، ظلّ فايز في حياتي مثل السطر الذي لا يمكن محوه، مهما تغيّرت الصفحات.

على قدر ما كانت صداقتي بفايز تمتلئ بالضحك والمشاكسة والضجيج،

كان في حياتي ركنٌ آخر صامت لا يعرف كل هذا الصخب، حين أعود إلى البيت بعد أيّ لقاءٍ معه، كنتُ أحتاج إلى ما يُعيدني إلى سكينتي الأولى، هناك في المسجد الصغير القريب من منزلنا، كنت أجد نفسي من جديد، المكان نفسه الذي شهد طفولتي، صار في شبابي ملجأً ألوذ إليه من ضوضاء الدنيا، كنتُ أفتح المصحف بعد العشاء، أقرأ ببطءٍ كمن يحادث الله سرًّا، وأحيانًا أجد بعض أصدقائي من المركز قد سبقوني، فنراجع معًا ما حفظناه، ونتنافس في التسميع.

ذلك الجوّ كان مختلفًا عن أيّ شيءٍ آخر، الهدوء، رائحة السجاد، نور المصابيح الخافت، كلّه يذكّرني أن الحياة لا تُعاش بالصوت العالي وحده.

منذ صغري، كان للقرآن مكانٌ ثابتٌ في قلبي، لم أكن أراه واجبًا فحسب، بل رفيقًا يمشي معي في كل طريق. كنتُ أشارك في مراكز تحفيظ القرآن في الحيّ، أجلس بين الأطفال والشباب، أراجع السور وأتسابق في الحفظ، وكانت لحظات التسميع تُشعرني كأنّني أتنفس نورًا، شيئًا فشيئًا، صرتُ من المقرئين المميزين في المسجد، وكنتُ أؤذّن أحيانًا حين يتأخر المؤذن، وصوتي الذي عرفه الناس في الإذاعة المدرسية، صار يملأ المئذنة عند الغروب، أحبّني أهل المسجد كما أحببتهم، وصاروا ينادونني باسمٍ أحببته كثيرًا: أبو أسامة.

لا أدري من أطلقه أول مرة، لكنّه علِقَ بي حتى صرت أسمعه أكثر من اسمي الحقيقي، كنتُ أشعر أنه يحمل احترامًا لا لقبًا، كأنهم يرون بداخلي رجلاً أكبر من عمري، شابًا يمكن الوثوق به، يُؤتمن على مفاتيح المسجد والأذان.

وفي الوقت ذاته، كنتُ أمارس رياضتي التي رافقتني منذ الثالثة عشرة "تنس الطاولة"، بدأتُ في نادي فلسطين الرياضي، كنتُ يومها طفلًا صغيرًا بالكاد يصل إلى الطاولة، لكنّ المدرب "نائل" رأى بداخلي شيئًا لم أره أنا بعد، علّمني الصبر قبل أن يعلّمني اللعب، قال لي مرةً:

"البطولة مش بس بالضربة يا صالح، البطولة إنك توقف بعد كل خسارة وكأنك ما خسرت".

تلك الجملة ظلت ترافقني في كل شيء بعدها، كبرتُ داخل أسوار النادي،وتعلّقتُ بزملائي والمدربين كأنهم أسرتي الثانية، ومع الوقت، بدأت العروض تتوالى من أندية أخرى:

نوادٍ أكبر، برواتب، وسفر، واهتمام، لكنني كنت أرفض دائمًا، لم يكن الأمر عنادًا ولا خوفًا من التغيير، بل وفاءً بسيطًا وصادقًا.

كنت أقول لنفسي:

"هذا النادي هو الذي صنعني، كيف أترك المكان يلي شاف جوّاتي الحلم قبل ما أشوفه أنا ؟"

وهكذا ظللتُ في نادي فلسطين سنواتٍ طويلة، أتدرّب، وأدرّب الصغار أحيانًا، أشارك في البطولات المحلية، في النهار كنتُ لاعبًا يحمل المضرب بثبات، وفي الليل كنتُ مقرئًا يرفع الأذان بخشوع، وبينهما كنتُ إنسانًا يحاول أن يعيش، أن يجمع بين صوت الروح وصوت الجسد، دون أن يفقد توازنه.

بدأت سنة 2018 بخفّةٍ غريبة، كانت غزة تبدو كمن يلتقط أنفاسه بعد سباقٍ طويلٍ في الظلام، الناس تعبوا، لكنّهم ما زالوا يبتسمون، البيوت التي أُعيد بناؤها نصفها فقط، والشوارع التي فُتحت بعد الحرب ما زالت تعرف طريق الركام أكثر من طريق الزهر، كلّ شيءٍ كان يمشي ببطءٍ، حتى الفرح.

في تلك الأيام كنتُ أعيش بين ثلاثة عوالم، الجامعة التي بدأت تضيق بي كلّما كبرت، والمسجد الذي يمنحني الطمأنينة، والنادي الذي أفرغ فيه ما تبقّى من طاقتي، كنتُ أركض بين هذه الأماكن كمن يحاول أن يثبت أنه ما زال حيًا، أن غزة رغم كلّ ما حدث، فيها شبابٌ لا ينتظرون الهزيمة.

صرتُ أرى الكاميرا كجزءٍ من جسدي، أحملها أينما ذهبت، أوثّق كلّ مشهدٍ

صغيرٍ للحياة، ابتسامة طفلٍ يبيع النعناع، امرأة تُنشر الغسيل فوق سطحٍ مهدّم، وشابٌ يُصرّ على الركض في شارعٍ نصفه رماد.

كنت أقول لنفسي:

"هاي غزة الحقيقية، مش يلي بشوفوها الناس بالأخبار".

لكن خلف هذا الهدوء، كان هناك شيءٌ في داخلي لا يهدأ، إحساسٌ بأنّ شيئًا قادمًا، شيئًا أكبر من قدرتي على التصوير أو التوثيق.

كأنّ المدينة تستعدّ لامتحانٍ جديد، وأنا معها. كلّ مساءٍ كنت أجلس على سطح البيت، أنظر نحو الغلاف الشرقي لغزة، حيث الأضواء البعيدة للاحتلال تلمع كعيونٍ تراقبنا بصمت، كنت أسمع همساتٍ تتردّد بين الشباب عن تحرّكاتٍ قريبة، عن "مسيراتٍ" يريد الناس أن يستعيدوا بها صوتهم، أن يقولوا للعالم: إنهم لم يُمحَوا بعد، لم أكن أعلم وقتها أنني سأكون هناك، في الصفوف الأولى، وأقف بين الدخان والرصاص.

في منتصف مارس/آذار عام 2018، بدأت غزة تستعيد أنفاسها بطريقة مختلفة، الناس يتحدثون عن شيءٍ قادم، شيء يشبه الحلم، يشبه العودة، للمقاهي، للمساجد، للبيوت، كان الجميع يردّد التاريخ نفسه:

"بثلاثين الشهر بنرجع نرفع الصوت".

كانت مسيرات العودة الكبرى هي حديث الناس كلهم، لم تكن حربًا، ولا مواجهة بالسلاح، بل وعدًا جماعيًا بالكرامة.

كان الهدف أن يقول الفلسطينيون:

"نحن لم ننسَ، ولن ننسى. أن نعود ولو بأقدامنا إلى السياج، أن نُريَ العالم أن الذاكرة أقوى من الجدران، وأنّ اللاجئين لم يتعبوا من الانتظار".

في الأيام التي سبقت المسيرة، كانت الخيام تُنصب قرب الحدود الشرقية للقطاع، في خان يونس والبريج وجباليا والزيتون والمنطقة الوسطى، تعلو الأعلام فوقها كأنها أجنحة، رجالٌ يُعدّون الطعام، نساءٌ

يخطئ الرايات، وشبابٌ يتناقشون حول الطرق الآمنة للوصول إلى الخط الفاصل.

حتى الهواء في غزة تغيّر، صار مشحونًا بشيءٍ يشبه الحياة بعد موتٍ طويل، كنت أراقب كلّ ذلك، كان هناك شعورٌ غريبٌ يملأ صدري، لم أكن سياسيًا، ولا أنتمي لأي فصيل، لكنّ قلبي كان يعرف طريقه دون أن أسأله. قلتُ لنفسي:

"هاي المرة، لازم أكون هناك".

كنتُ أحبّ المغامرة منذ الصغر، وربما لهذا السبب كنت أول من أعلن لأهلي أنني سأشارك، أمي نظرت إليّ طويلاً، كأنها تقرأ المستقبل في وجهي، ثم قالت بصوتٍ هادئٍ يخفي قلقًا كبيرًا:

"روح يا صالح، بس خليك عاقل، لا تقرب من النار".

ضحكتُ وقلت لها:

"غزة كلها نار يا أمي، بس إحنا يلي بنختار كيف نحترق".

وفي صباح الجمعة، الثلاثين من آذار/مارس 2018، كانت غزة على موعدٍ مع الزحف الأول، السماء رمادية، والهواء يعبق برائحة التراب الرطب، والناس تسير من كل الجهات نحو الغلاف الشرقي، من رفح إلى بيت لاهيا، صفوفٌ من الرجال والشباب والأطفال، يحملون الأعلام، يهتفون، يضحكون، يبكون.

كان المشهد أكبر من كلّ وصف، تحت أصوات الهتاف وقراءة الفاتحة، كان الناس يمشون بخطواتٍ ثابتةٍ نحو أرضٍ يعرفون أنها ليست بعيدة، ولمّا وصلتُ إلى هناك، ورأيتُ السلك الشائك يفصلنا عن حقولنا القديمة، شعرت أنني أقف على خطٍّ بين زمنين، ماضٍ ضائع، ومستقبلٍ نُولد فيه من جديد.

الهتافات تعلو، والأعلام تُرفرف، وصوت الشباب يطغى على صوت الرصاص، كانت غزة كلّها في تلك اللحظة كائنًا واحدًا، ينبض، ويهتف،

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

ويحلم.

كانت المسيرات كلّ يوم جمعة، تخرج بوجوهٍ متعبة وقلوبٍ لا تعرف الاستسلام، الهواء كان مزيجًا من الغبار والغاز،لكن الناس تمشي، ترفع الأعلام، تهتف بأسماء القرى، كأنّ الطريق نفسه يعيدهم إلى طفولتهم القديمة، وفي الجمعة الرابعة من شهر أيار / مايو 2018، كنتُ مع مجموعةٍ من الشباب في موقع ملكة، نقف بين الدخان والريح، نهتف ونلوّح، نضحك أحيانًا رغم الخوف، كأنّ الضحك هو السلاح الوحيد الذي تبقّى لنا، فجأةً تغيّر كل شيء، بدأ الرصاص يسقط كالمطر، صوتٌ حادّ يقطع الهُتاف، رأيتُ من كانوا حولي يسقطون واحدًا تلو الآخر، لم أفهم من أين جاءت الطلقات، لكنّ الأرض امتلأت بالدم في لحظات. صرخت:

"إسعاف! في مصابين، يا عالم وين الإسعاف!"

ثم شعرتُ بحرارةٍ شديدةٍ تضرب ساقي اليمنى، كأنها نارٌ اخترقت اللحم والعظم معًا، نظرتُ للأسفل، فرأيت الدم يتفجّر من أسفل ركبتي، كانت هناك طلقةٌ اخترقت الساق وخرجت من الجهة الأخرى، تركتْ خلفها جرحًا مفتوحًا كنافذةٍ صغيرةٍ تطلّ على الألم، حاولت أن أقف لم أستطع، التراب انزلق من تحت يديّ، والصوت من حولي صار بعيدًا كأنه يأتي من حلمٍ ثقيل، الهواء ممتلئٌ برائحة الحديد والدم، وصرخات الناس تختلط بصوت الرصاص، ركض نحوي ثلاثة شباب من الإسعاف الميداني، وجوههم مغبّرة، وعيونهم لا تعرف الخوف، رفعوني بسرعةٍ على حمالةٍ من قماشٍ قديم، وهرولوا بي نحو الخلف بينما الرصاص يتساقط حولنا كالمطر.

كنت أرى كل شيءٍ مقلوبًا وأنا على الحمالة، السماء تركض معي، والأرض تبتعد، والصوت الوحيد الذي ظلّ في أذني كان صراخ أحد المسعفين:

"نزيفه كبير! اضغطوا على الجرح!"

لم أكن أشعر بالألم وحده، بل بشيءٍ أعمق، عجزٌ يلتهمني ببطء، كلّ الذين كانوا بجانبي قبل دقائق، صاروا الآن جثثًا ممدّدة، عيون مفتوحة نحو

السماء، كأنهم يسألونها لماذا تأخرت، حين وصلت إلى سيارة الإسعاف، كان الدم يغمر ملابسي كلها.

أغلقوا الباب، وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها، وفي اللحظة الأخيرة قبل أن أغيب عن الوعي، رأيت من النافذة علمًا فلسطينيًا صغيرًا عالقًا في السلك الشائك، يرفرف وحده وسط الدخان، كأنه آخر من بقي واقفًا هناك.

ثم أُجريَت لي عملية جراحية لإزالة الرصاصة من ساقي، بقيت ساعاتٍ طويلة في غرفة العمليات، صوت الأجهزة يملأ الغرفة، ورائحة المعقمات تُذكّرني كم يقترب الإنسان من الموت دون أن يدري، وحين استيقظت، كانت ساقي ملفوفة بالضمادات حتى الركبة، والوجع يطرق جسدي كل دقيقة كأنه يذكّرني أني نجوت بصعوبة، بعد أيامٍ قليلة، عدتُ إلى البيت محمولًا على أكتاف الأصدقاء، كان الحيّ كله بانتظاري، الناس يبتسمون، الأطفال يصفّقون، وأنا أُخفي ألمي بابتسامةٍ عريضةٍ كأنّ شيئًا لم يحدث.

حين وصولي للبيت كان المشهد هناك مختلفًا. عانقتني أمي بقوّةٍ حتى شعرت أن صدرها يرتجف، ثم أبعدتني قليلًا لتنظر إلى قدمي وتقول:

"الحمد لله على سلامتك، يا وجع قلبي، متى رح تعقل يا صالح؟"

ضحكتُ رغم الدموع في عينيها، وقلت:

"ما في إشي يا أمي، الرصاصة كانت مزحة صغيرة!"

والدي كان يقف خلفها، صامتًا، كان وجهه مزيجًا من الغضب والفخر، كأنه لا يعرف إن كان يجب أن يوبّخني أم يحتضنني.

اقترب مني وقال بصوتٍ ثابتٍ:

"المجد مش إنك تنصاب، المجد إنك ترجع سالم وتكمل الطريق بعقل".

كنتُ أعرف أنهم خائفون عليّ، لكنّهم يعرفونني أكثر مما يعرفون خوفهم، يعرفون أنني لا أستطيع الجلوس طويلًا، أنّ روحي قلقة، مشاكسة تحبّ أن ترى، أن تجرّب، أن تُخاطر، حتى لو كانت المخاطرة بثمن الدم، في تلك

الليلة، جلست على سريري أحدّق في قدمي الملفوفة بالضمادات، وأفكّر أنني لو وُضعت غدًا في الموقف ذاته، ربما كنت سأذهب من جديد، ليس حبًا بالمواجهة فقط، بل لأنّ شيئًا في داخلي كان يقول دومًا:

"يلي بحب غزّة، ما بخاف منها".

مرّت عشرة أيام فقط على إصابتي الأولى، كنت بالكاد أستطيع المشي، لكنّ الصوت في داخلي كان أعلى من وجعي، في صباح الاثنين، الرابع عشر من أيار / مايو 2018، استيقظت وأنا أشعر أنّ شيئًا ما يدعوني من الخارج، من الجهة الشرقية التي لا تهدأ، فتحت النافذة، وسمعت الهتافات، رأيت الناس يتجهون نحو الغلاف كالسيل، لم أحتمل البقاء.

أمسكت العكّازين، ورغم اعتراض أمي وصراخها، خرجت.

كانت تقول لي:

"يا صالح، لسا ما التأم جرحك!"

فأجبتها بابتسامةٍ باهتة:

"بس الجرح الحقيقي يا أمي، برّا، مش جوّا".

عند الشيك الفاصل، كانت غزة كلّها هناك، سماءٌ رمادية، ودخانٌ أسود يرتفع كأنّ الأرض تحترق ببطء، أصوات التكبير والهتاف تختلط بصوت الرصاص، والهواء نفسه صار ثقيلًا من كثرة الصراخ، قال أحد الشباب بجانبي:

"اليوم مش زي كل جمعة، اليوم مجزرة".

لم تمضِ دقائق حتى بدأ الضرب العشوائي، الرصاص يأتي من كل اتجاه، كأنّ السماء انقلبت علينا، كنت أعرج لكنني أركض، أحاول أن أساعد المصابين، أحمل هذا، أجرّ ذاك، وأصرخ بأعلى صوتي:

"إسعاف يا إسعاف في مصابين".

الأرض تهتزّ تحت الأقدام، والناس تسقط بالعشرات، سمعتُ أحد المسعفين يصرخ:

"خلي بالك القناصة فاتحين كل الاتجاهات".

ثم شعرتُ بحرارةٍ رهيبةٍ تخترق فخذي اليسرى، صرخةٌ خرجت مني دون وعي، كأنها خرجت من القلب لا من الجسد.

نظرتُ إلى الجرح، كانت الرصاصة قد اخترقت اللحم بالكامل، الدم ينفجر من الفخذ كنبعٍ أحمر، لم أستطع أن أصرخ أكثر، كان صوت الرصاص يطغى على كل شيء، كأنّ السماء نفسها تمطر نارًا، حولي الناس يسقطون بالعشرات، لا وقت للبكاء ولا حتى للدهشة، وجوهٌ أعرفها تترنح أمامي وتسقط فجأة، ثم يسكن كل شيء إلا صدى الصراخ، رأيت شابًا كان يلوّح بالعلم قبل دقيقة، الآن جسده ممدّد على التراب، عيناه مفتوحتان نحو الغيوم كأنّه ما زال ينتظر شيئًا من السماء، امرأة تركض حافية تحمل طفلها، والمسعفون يركضون مثل أشباحٍ بين النيران، يرفعون من بقي فيه رمقٌ من حياة، كان الرصاص عشوائيًا، يُطلق على أي حركة، على أي ظلّ، حتى أصوات الإسعاف لم تسلم من الدمدمة المعدنية للرصاص.

كلّ من كان في الميدان صار هدفًا، كأنّ الاحتلال أراد أن يطفئ الحياة نفسها، أن يُغرق الأرض بالدم حتى تشبع، ثم سمعت أحدهم يصرخ:

"في مسعفين هون بسرعة، نزيف حاد".

جاء أربعة شباب يحملون حمالة إسعافٍ ميدانية، وجوههم متسخة بالدم والتراب، أنزلوا بطانيتهم على الأرض بسرعة، رفعوني عليها وأنا أضغط بيدي على فخذي المصابة، أحدهم كان يلهث ويقول للآخر:

"ارفع من الطرف، بسرعة لا تتركه يلمس الأرض".

بدأوا يركضون بي بين الحفر، وصوت الرصاص ما زال يصفّر في الهواء مثل الجنون، كنت أشعر أن الدم الحارّ يسيل من رجليّ ويختلط بتراب غزة،

ثمّ حدث ما لم أتصوّره.

بينما كانوا يهرولون بي، دوّى صوت طلقةٍ أخرى قريبة جدًا، وشعرت فجأة بحرارةٍ ثانيةٍ في ساقي المصابة أصلًا، رصاصة أخرى اخترقت العظم الممزق ذاته، صرخت بكل ما في صدري:

"انضربت! انضربت كمان رصاصة".

توقف أحد المسعفين فجأة وهو يصرخ للآخرين: "نزلوه نزلوا الحمالة بسرعة"، لكن الرصاص لم يتوقف، والأربعة الذين كانوا يحملونني وقعوا واحدًا تلو الآخر على التراب، اثنان في الكتف، وواحد في الظهر، والرابع صرخ:

"أنا كمان اتصاوبت".

كأن الرصاصة لم تكتفِ بي، بل قرّرت أن تقتسم الغضب بيننا جميعًا، كنت ممدّدًا على الحمالة، الدماء تغمر القماش، الهواء ملوّث بالغاز والرماد، وصوتي يخرج متقطّعًا:

"في طلق يا دكتور الطلق برجلي".

جاء الطبيب الميداني يركض نحوي، انحنى فوقي، يده ترتجف، ووجهه شاحب، قال لي وهو يحاول أن يضغط على الجرح بقطعة شاشٍ غارقةٍ بالدم:

"صالح اهدى شوي بس خلينا نوصلك للمستشفى".

قلت له وأنا ألهث:

"بسرعة يا دكتور، مش قادر أتحمل".

هزّ رأسه بأسى، وقال بصوتٍ مبحوحٍ:

"المهم نوصلك للمستشفى حيّ، بعدين بنطلّعها منّك".

سمعت أحد المسعفين الجدد يصرخ: "حمّالة تانية بسرعة".

رفعوني من جديد، وكنت أرى العالم من زاويةٍ مائلة، وضعوني بسيارة الإسعاف وأنا أنزف، صوت الصفارة يقطع الشوارع الضيقة، وصوت المسعف يصرخ للسائق:

"على الشفاء بسرعة فقد كثير دم".

عندما وصلنا مستشفى الشفاء، كان المكان يعجّ بالفوضى، لم يكن مستشفى بقدر ما كان ساحة حربٍ أخرى، الدماء في الممرات، الناس تصرخ، المسعفون يركضون وهم لا يعرفون لمن يلبّون أولًا، كل زاوية فيها مصاب أو شهيد، كل باب غرفة يُفتح على أنينٍ جديد، كان العدد يفوق الطاقة قال أحد الممرضين بصوتٍ يختنق بالتعب:

"ما في سرير فاضي حطّوه برا بالخيمة".

أخرجوني إلى الخيمة الميدانية التي نُصبت أمام باب الطوارئ، الخيمة كانت مكتظة بالمصابين، الهواء فيها ثقيل، ورائحة الدم تختلط باليود والدخان، لم يجدوا لي مكانًا على النقالة، فأنزلوني على الأرض، على قطعة شادرٍ بلاستيكيةٍ ملطخةٍ بالدماء القديمة، كنت أرتجف من الألم، الجرح ينزف كأنّ الرصاصة ما زالت في الداخل.

أحاول أن أصرخ، لكن صوتي يضيع بين مئات الأصوات من حولي، كل من حولي يتألم، كلٌّ يطلب حياةً صغيرة من الطبيب المرهق، بدأت أضع يدي على جرح الفخذ، أرفعها لأراها مغطاة بالدم، ثم ألوّح بها محاولًا أن ألفت انتباه أيّ أحد.

كنت أصرخ:

"يا ناس أنا عم بنزف حدّ يشوفني".

لكن لا أحد كان يسمع، الموت كان له صوتٌ أعلى من صوتي، حتى المسعفون صاروا يمرّون بجانبي كمن اعتاد هذا المشهد، أحسست أن كل شيء بدأ يبرد، قدماي تثقلان، ونفَسي يضيق، نظرت إلى سقف الخيمة

الممزّق، فـي تلك اللحظة، اقترب رجلٌ بلباسٍ داكن، يحمل جهازًا على كتفه.

كان شرطيًا، رآني ألوّح بيدي الملطخة بالدم، اقترب مني بسرعة، جثا على ركبتيه، أمسك بيدي، نظر إلى الجرح، شهق وقال:

"هاذ لازم يفوت جوا فورًا".

رفعني من على الأرض كأنني طفل، حملني وحده رغم وزني والدم، وصار يركض بي بين الحشود إلى الداخل، كنتُ أسمع أنفاسه تتقطع من التعب، لكنّ يده لم تتركتني لحظة.

صرخ بأعلى صوته على الأطباء:

"هذا فخذه مفتوح وين الأطباء؟"

اجتمع حولي اثنان من الكادر الطبي، فحصاني بسرعة، أحدهم قال:

"الوضع خطير النزيف داخلي".

والآخر صاح:

"حولوه فورًا على مستشفى الصحابة، العمليات جاهزة هناك".

رفعتُ رأسي بصعوبة وسألتُ وأنا ألهث:

"الصحابة؟ مش هذا مستشفى نساء وولادة؟".

نظر إليّ الطبيب بسرعة، وفـي عينيه لمعة تعبٍ وخوف، وقال:

"عارف، بس فـي وفد طبي أجنبي هناك، جايين يساعدونا بالعمليات المعقّدة، غرفة العمليات عندهم أنظف ومجهزة" .

لم أجد ما أقول، ضحكتُ رغم الألم، ضحكةً مكسورةً خرجت من صدري وقالت أكثر مما قلت بصوتي:

"غزة، ما أغرب مفارقاتها، حتى الجرحى فيها يولدون من جديد فـي مستشفى للولادة".

عاد الشرطي نفسه، غطّى جسدي ببطانيةٍ خفيفةٍ من سيارة الإسعاف، وهمس لي:

"اثبت يا بطل".

أُغلق باب السيارة، وصوت المحرك دوّى في أذني كنبضٍ ثقيل، كنت بين الغياب والوعي، أشعر بالبرد يزحف من أطرافي، لكنّ داخلي كان نارًا، وصلنا مستشفى الصحابة، وفي اللحظة التي حملوني فيها إلى غرفة العمليات، كان كل شيءٍ يدور من حولي، الضوء الأبيض صار باهتًا، والأصوات كأنها تأتي من تحت الماء، سمعتُ آخر كلمة من الطبيب قبل أن أغيب عن الوعي:

"تجهيز العملية فورًا، رصاصة بالفخذ، نزيف عميق، الوقت ضيق".

مرّت ساعةٌ كاملة داخل غرفة العمليات، الوقت في الخارج كان أثقل من الحديد، ناجي واقف عند الباب، وأبي يُتمتم بالأدعية بصوتٍ خافتٍ، وأمي جالسة على الكرسي البلاستيكي تهمس:

"يا رب، رجعلي إياه بس بخير ما بدي منه غير صوته".

صوت الأجهزة من الداخل كان متقطعًا، وصوت العجلات يمرّ بين الممرّات مثل هسهسة القلق، حتى الجدران بدت متوترة، ثم فُتح الباب فجأة، وخرج الطبيب الجراح، وجهه مغطى بالعرق، عيناه حادّتان، ونبرته غاضبة، خلع الكمامة بسرعة وسأل بصوتٍ حادّ: "مين والد صالح؟ مين منكم أخوه؟"

تقدّم ناجي خطوة وقال بثباتٍ رغم التوتر:

"أنا أخوه، شو في؟ خير يارب؟"

ردّ الطبيب بانفعالٍ مكبوت:

"العملية نجحت مبدئيًا، بس في إشي مش طبيعي بساقه الثانية، يلي فيها العملية القديمة، مين يلي عملها؟".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

تبادل الجميع النظرات، قال ناجي بحذر:

"عملوها في الشفاء قبل أسبوعين لما انصاب أول مرة، ليش؟ شو فيها؟"

تنفس الطبيب بعمقٍ ومسح جبينه بكمّه وقال:

"فيها تجمّع سوائل ودم فاسد، والتهاب وعفن داخلي، لو تأخرنا شوي كان اضطرينا نقطعها، كيف سمحتوا يضل هيك؟"

تجمّد المكان، الأب رفع رأسه ببطء، وقال بصوتٍ واهنٍ يشبه الاعتراف:

"هو كان يحكي إنه في ورم عند الركبة، بس إحنا فكرناها من العملية، كنا نحطله مي دافية وملح، ما توقعناها خطيرة".

هزّ الطبيب رأسه بأسفٍ وقال بحدةٍ يختلط فيها التعب بالشفقة:

"هاي مش رجل عادية، هاي حياة، إحنا هلأ بنظّفها وبنكمّل العملية الثانية، ادعوله، لأنه رح يطوّل جوّا شوي".

ثم عاد مسرعًا إلى داخل غرفة العمليات، وأغلق الباب خلفه بقوة، كأنّه يغلقه على معركةٍ جديدة بين الموت والحياة، في الخارج، ظلّ ناجي واقفًا أمام باب غرفة العمليات، الأنوار البيضاء تُلقي على وجهه ظلًّا باهتًا، وعيناه معلّقتان بذلك الباب الذي فُتح مرّة وأُغلق مرّتين، كأنه بوابةٌ بين الدنيا وما بعدها.

لم يتقدّم خطوة، بل وضع يده على صدره، ورفع بصره إلى السماء وقال بصوتٍ ثابتٍ عميقٍ يشبه أصوات الأوّلين:

"اللهم يا من لا تضيع عنده الودائع، إليك أودعتُ قلبي في جسدِ أخي، فاحفظه بحفظك الذي لا يُرام، اللهم إن عبدك صالحًا ما أراد إلا وجهك، ولا خرج إلا حُبًا في أرضٍ باركتها بدماء الصادقين، فإن كان قد بلغ جهدَه، فاجعل جُرحه شفاعةً له لا شهادةً عليه، اللهم اشفِه شفاءً لا يغادر ألمًا، وردّه إلينا كما رددتَ يوسف إلى يعقوب بعد طولِ فراقٍ ودمعٍ وابتلاء".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

ثم مسح دموعه سريعًا، وكأنّ الإيمان يأمره أن يبقى صامدًا أمام خوفه، وأكمل بصوتٍ هادئٍ كأنه يخاطب الغيب بثقة من يعرفه:

"اللهم لا تجعل له في هذه الأرض بديلًا، فإن غاب صالح، غابت معه نصفُ غزة التي نعرفها".

مرّت أيّامٌ قليلة بعد العملية الثانية، حتى سمحوا لي بالعودة إلى البيت. كنتُ ما أزال ضعيفًا، لكنّ رائحة المنزل كانت كفيلة بأن تعيد لي بعض الحياة، كانت أمي تهيّئ لي السرير بيدٍ مرتجفة، كما لو أني خرجت من معركةٍ مقدّسة ليس من المستشفى، أبي يبتسم بصمتٍ يشبه الحمد، وناجي يجلس إلى جواري لا يفارقني إلا للصلاة.

في ذلك المساء، حين اجتمعنا جميعًا في الغرفة الصغيرة، قالت أمي بصوتٍ حنونٍ متردد: "بدنا نحكيلك شو قال الدكتور بعد العملية".

رفعتُ رأسي ببطء، والقلق يمرّ في صدري قبل أن أنطق.

تابعت هي قائلة:

"قال إنّه رجلك الأولى، يلي انصابت قبل، كان فيها سوائل وعفن، ولو تأخرنا فيها يومين كان اضطرّوا يقطعوها".

تجمّدت للحظة، نظرتُ إلى رجلي المربوطة بالشاش الأبيض، كأنّها صارت شاهدةً على معجزةٍ صغيرةٍ نُسجت بالرحمة لا بالطب، ثم ابتسمتُ ابتسامةً خفيفةً وسط صمتي، وقلت:

"سبحان الله، إنّ المؤمن أمره كلّه له خير، إن أصابته سرّاء شكر، وإن أصابته ضرّاء صبر".

سكتُّ لحظة، وتمتمتُ كمن يُراجع الدرس الذي لقّنه الله له بالألم:

"وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ".

نظرت إليّ أمي بعينين ممتلئتين بالدموع، وقالت وهي تبتسم رغم

ارتجاف صوتها:

"لسّا صغير يا صالح، بس قلبك كبير يما".

أما ناجي، فوضع يده على صدري وقال بخشوعٍ يشبه صوت الآذان قبل الفجر:

"هذا هو الرضا، يا أخي، الرضا الذي لا يُكتب بالحبر، يُكتب بالجرح".

في تلك الليلة، ولأوّل مرة منذ شهور، نمتُ دون خوفٍ من الغد، كأنّ كلّ الجروح في جسدي كانت تُسبّح بحمد الله معي، بدأت أيام التعافي تمضي ببطءٍ جميلٍ، كانت الشمس تدخل غرفتي كل صباحٍ على استحياء، تداعب الجدار المقابل، وأسمع من بعيد أصوات الباعة والأطفال، كأنّ الحياة تُعيد عزفها بعد توقفٍ طويل، كنتُ أتحامل على نفسي لأقف، أمسك العكّازين، وأمشي ببطءٍ بين جدران البيت، أمي تراقبني بعينِ حذرةٍ وقلبٍ فخور، كل خطوةٍ كنتُ أخطوها كانت توازي معركةً صغيرة، وفي كلّ مرةٍ أتعثر فيها، كان ناجي يمدّ يده لي دون كلام، عيناه تقولان كل ما لا يقال، وبعد أسابيع قليلة، عدتُ إلى المسجد لأول مرة منذ إصابتي، كان المصلّون ينتظرونني على الباب، وجوههم مزيجٌ من الحزن والفخر، أحدهم قال لي وهو يربّت على كتفي:

"أهلًا بأبو أسامة، فقدناك بالمسجد والله".

جلستُ في الصف الأول، ومع أول تكبيرةٍ سمعتها، انهمرت دموعي دون إرادة، كأنّ كل ما حدث كان طريقًا طويلاً، لأفهم أن النجاة ليست أن تبقى حيًا، بل أن تبقى شاكرًا، ومنذ تلك الصلاة، لم أعد أنظر إلى الجرح كعيب، بل كخاتمٍ من الله، يذكّرني كلما وقفتُ أنّي سقطتُ مرّةً لأتعلم كيف أنهض بإيمانٍ جديد.

وجاء عام 2019، عامٌ لم يبدأ مختلفًا في بدايته، لكنّ غزّة لا تترك أبناءها طويلًا دون امتحان، بدأت مسيرات العودة تعود بزخمٍ جديد، والقصف على الحدود صار أكثر شراسة، كنتُ في ذلك الوقت قد شُفيت

تمامًا، لكن آثار الجرح ما زالت تتحدث إلي، قال لي ناجي صباح أحد الأيام:

"وعدت ربك إنك تتعظ، لا تنس الجروح يا صالح".

ابتسمتُ وأجبته بنبرةٍ فيها مزيج من الجدّ والمزاح:

"أنا ما برجع أقاتل، بس برجع أكون شاهد، وشاهد الحق ما بتهرّب من الميدان".

في فبراير من عام 2019 كان شهرًا باردًا وثقيلًا، لكنّ الميدان كان يغلي كعادته، غزّة لم تعرف الشتاء يومًا، كانت دائمًا في فصل النار، كنت هناك في يوم جمعةٍ عاديّ الملامح، مع صديقي الأقرب فايز، ذلك الرفيق الذي شاركني الطفولة والمراهقة والحلم والصوت، وقفنا قرب السلك الشائك في منطقة ملكة، نراقب المشهد الذي صار جزءًا من حياتنا، الناس تهتف، الأطفال يلوّحون بالأعلام، والسماء ممتلئة برائحة البارود والبحر معًا، كنت أمسك هاتفي، أحاول أن أصوّر مقطعًا قصيرًا بصوتي، بيت شعرٍ كتبته لليوم نفسه، كنت أقرأه لفايز بابتسامةٍ صغيرة، أمزج الحروف بصوتٍ مرتجفٍ من الحماسة:

"هنا نولد من الرماد، ونكبر على الحجارة، فإمّا أن نحيا أعزاء، أو نُروي الأرض بالكرامة".

ضحك فايز وقال:

"لسا بتكتب وأنا أتحامى؟ خلّي بالك يا شاعر الميدان".

كنت أضحك، لكنّ قلبي كان يخفق بسرعةٍ غريبة، على البرج المقابل، كان هناك جندي إسرائيلي يراقبنا بالمنظار منذ دقائق، سمعت صوته من مكبّرٍ صغيرٍ:

"يا صالح! روح! يا جعفراوي لا تظل هون".

تبادلت النظرات مع فايز، قلت له مازحًا:

@ART_OF_BOOK

"حتى العدو صار يعرف اسمي! شكله بتابع صفحتي".

ضحكنا ضحكةً قصيرة، ضحكةً كأنها تحاول أن تنفي الخوف عن الوجود، ثمّ حدث كل شيءٍ في لحظةٍ واحدة. صوت طلقٍ واحد، ثمّ صمت.

شعرت بشيءٍ ساخنٍ يخترق رجلي اليمنى، تحت الركبة مباشرةً، كأنّ قطعة حديدٍ مشتعلةٍ زرعت نفسها في العظم، لم أسمع الطلقة، لكنّ جسدي سمعها عنّي، سقطتُ على الأرض دون وعي، الهاتف سقط بجانبي، والهاتف ما زال يسجّل السماء وهي تترنّح فوقي، صرخ فايز وهو يركض نحوي:

"صالح! صالح وينك انضربت!"

قلت وأنا أحاول أن أتنفّس: "رجلي رجلي يا فايز".

حاول أن يرفعني، لكن الرصاص لم يتوقّف، صاح أحد المسعفين من بعيد:

"انتبهوا يا شباب، القناص فاتح علينا".

كان الألم يشتعل في جسدي مثل نارٍ لا تُطفأ، رأيت الدم يسيل من ساقي كأنّه يركض قبلي نحو الأرض، وضعت يدي على الجرح، أحسست بالعظم يصرخ تحت أصابعي، عرفت حينها أن الأمر مختلف هذه المرة، إنّها ليست إصابةً تُشفى بسهولة.

جاء المسعفون أخيرًا، رفعوني على الحمالة وأنا أسمع صوت فايز يبكي ويقول:

"خدّوه بسرعة مشان الله رجله بتنزف".

نُقلت بعدها إلى مستشفى الشفاء الطبي، أجروا لي عمليةً استمرت ساعات، ثبتوا في ساقي بلاتينًا بدل العظم الذي تحطّم، وحين أفقتُ، كانت قدماي مثقلتين بالحديد، لكنّ روحي كانت أخفّ من أي وقتٍ مضى، تلك الإصابة الثالثة، لم تتركني كما كنت، لم تكن جرحًا في الجسد فقط، بل كانت فصلًا جديدًا في فهمي للحياة، من بعدها لم أعد ذاك الشاب الذي

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

يركض وراء الصورة أو الحلم، بل أصبحت أدرك أن بعض الطرق لا تُقطع بالأقدام، بل بالإصرار وحده.

مرّت الأيام ببطءٍ ثقيلٍ كأنّ الزمن نفسه كان مصابًا معي، كانت رجلي ملفوفةً بالضمادات والحديد، وفي داخلها البلاتين الذي صار جزءًا من جسدي، يذكّرني كلما تحرّكت أن بعض الألم لا يُخلع بسهولة. قال لي الطبيب يوم خروجي من المستشفى:

"ممنوع تركض، ممنوع تحمل أوزان، وممنوع أي نشاط رياضي حتى نقرر نزيل البلاتين، رجلك الآن ضعيفة مثل زجاجٍ جديد، أي حركة خاطئة ممكن تكسرها ثانية".

هززتُ رأسي صامتًا، لكنّ قلبي كان يعترض، كيف أعيش دون الحركة التي كانت حياتي؟ كنتُ لاعب تنسٍ منذ طفولتي، الملعب هو عالمي، صوت ارتطام الكرة بالمضرب كان موسيقاي المفضلة، والآن صرت أستمع لصوت احتكاك العكّاز بالأرض.

قضيتُ الشهور التالية في البيت، كلّ شيءٍ كان يتحرّك حولي ما عداي، كنتُ أراقب الحياة من النافذة، أطفال الحي يلعبون الكرة، وأنا أتابعهم بعينٍ يملؤها الحنين، أبتسم، ثم أشيح نظري حتى لا يروا دموعي.، لكنّ الله لم يتركني وحيدًا، كان فايز هناك دائمًا، منذ خروجي من المستشفى لم يغب يومًا واحدًا، كان يأتي كل صباحٍ يحمل القهوة، يقول ضاحكًا:

"هاي القهوة ما فيها كافيين، بس فيها أمل".

كان يقضي الساعات بجانبي، يقرأ لي من القرآن تارةً، ويشغّل أناشيدنا القديمة تارةً أخرى، أحيانًا نحكي عن الطفولة، عن المرات التي كنا نهرب فيها من المدرسة لنغنّي في الإذاعة، وأحيانًا نسكت طويلًا، كأنّ الكلام لا يستطيع وصف ما في قلوبنا.

كان شهر فبراير من عام 2019، شهرًا لا يُنسى في ذاكرة بيتنا، بيتٌ واحد جمع بين فرحين ووجعين، فرح زواج ناجي، الابن البكر، ووجع قدمي

التي كانت ما تزال مثقلةً بالحديد والضمادات، كنت حينها قد خرجت من المستشفى قبل أيامٍ فقط، وما زلت أتعلم كيف أمشي بالعكّازات، قدمي ملفوفةٌ بالشاش، وفي داخلها البلاتين الذي اتحد معي، كنت أضحك مع الجميع، لكن قلبي كان يختزن ألمًا لا أظهره، كي لا أفسد على ناجي فرحته التي انتظرناها طويلًا.

منذ الصباح، امتلأ البيت بالحركة والضحك ورائحة القهوة، وأمي تدور بين الغرف مثل فراشةٍ متوترةٍ سعيدة، تُعدّ الزينة، وتنسق الثياب، وتقول بين حينٍ وآخر بصوتٍ مرتجفٍ من الدعاء:

"اللهم تمّمها بخير، يا رب احفظ ولدي ووفّقه".

أما ناجي، فكان هادئًا على غير عادة العرسان، يبتسم لكلّ من يراه، وعيناه تمتلئان بخشوعٍ لا فرحٍ فقط، جلس بجانبي على طرف السرير.

نظر إلى قدمي الملفوفة وقال بصوتٍ خافتٍ:

"سامحني يا صالح، كنت بتمنى تمشي معي اليوم على رجليك، مش بالعكّازات".

ابتسمت وقلت له وأنا أخفي رعشة الألم:

"المهم إنك بتمشي أنت بخطوة ثابتة، يمكن رجلي مربوطة، بس قلبي واقف جنبك".

ضحك وهو يمدّ يده نحوي، صافحني بقوةٍ وقال:

"دعوتك تكفيني، يا أخي".

حين جاء المساء، بدأت الزغاريد تتعالى من نوافذ الجيران، وصوت الأناشيد يملأ الحيّ، بينما كنت أجلس في زاوية الغرفة أراقب كل شيءٍ بابتسامةٍ صامتة، أمي تجهّز له ملابسه، وأبي يرتّب عباءته البيضاء، والبنات يضحكنَ حوله كأن الفرح عاد ليستأذن البيت بعد غيابٍ طويل، وقبل أن يخرج ناجي إلى الزفّة، اقترب مني، وضع يده على كتفي، وقال لي مازحًا:

"اليوم أنا العريس، بس بعد كم سنة رح يكون دورك، شد حيلك مشان نجوزك".

ضحكنا، تلك الضحكة التي كانت تحمل بين طيّاتها كل شيء، الألم، الحب، الأمل، والمصير خرج ناجي من البيت، وأنا أتبعه بنظري من النافذة، الناس تهتف، والأنوار تتلألأ في الشارع، وصوت الأناشيد يعلو: "بارك الله لكما وبارك عليكما".

وأنا هناك، أمسك بالعكّاز بيدٍ، وبالكاميرا بيدٍ أخرى، أحاول أن أبقي العدسة ثابتة رغم الارتجاف. كنتُ أريد أن أوثّق اللحظة ليس لأحتفظ بها، بل لأذكّر نفسي أنّ الفرح ممكنٌ حتى من فوق الجرح، في تلك الليلة، بكيت بهدوءٍ وأنا أسمع أصوات الفرح من بعيد، ثم مسحت دموعي وقلت في نفسي:

"اليوم ناجي بتزوّج وبكره دوري إن شاء الله".

كان ذلك الزفاف نقطةً فاصلةً في بيتنا، اجتمع فيه الفرح والوجع كما لم يجتمعا من قبل، لكنّنا جميعًا شعرنا أنّ الله كان يبتسم لنا من بعيد، يرى الحديد في قدمي، والحنان في قلب أمي، ويكتب لنا درسًا جديدًا في الصبر الجميل.

بعد الزفاف، عدنا إلى البيت ونحن نضحك ونبكي في الوقت نفسه، جلسنا جميعًا في غرفة الجلوس الصغيرة، ننظر إلى الكراسي الفارغة وكأنها تتكلم، قالت ياسمين ضاحكةً والدموع في عينيها:

"البيت غريب بدون صوت ناجي ".

ضحكنا، ولكن في قلوبنا غصّة صغيرة، غصّة الفرح الذي يحمل معه شيئًا من الوداع، وفي تلك الليلة، كتبت في دفتري الصغير:

"البيوت لا تكبر بزواج أبنائها، بل تكبر بالحبّ الذي يتركونه حين يغادرونه".

@ART_OF_BOOK

ومنذ ذلك اليوم، صار لنا في غزة بيتان بيتٌ نصلّي فيه خلف ناجي في المسجد، وبيتٌ آخر يُرفع فيه الأذان من صوته في كلّ صباحٍ جديد.

مرت أربعة أشهر من الانتظار، والأطباء يتابعون حالتي أسبوعًا بعد آخر، كل زيارةٍ كانت بين رجاءٍ وخوف، حتى جاء اليوم المنتظر، يوم فك البلاتين، كانت الشمس دافئة ذلك الصباح، والطريق إلى مستشفى الأهلي العربي – المعمداني في مدينة غزة يشبه طريق العودة إلى نفسي، في السيارة، جلس فايز بجانبي، يحاول أن يخفّف توتري بالكلام عن كل شيء إلا العملية، لكني كنت صامتًا، أنظر من النافذة وأفكّر في كمّ المرات التي كسرت فيها وعدت أقف مجددًا، دخلنا المستشفى، الممرات البيضاء، رائحة المعقّم، القلوب المعلّقة بين أملٍ وخوف، أخذوني إلى غرفة العمليات، كنت أسمع صوت فايز خلفي يقول للطبيب:

"خلي بالك منه، هذا رجلي الثانية".

ابتسم الطبيب وقال:

"ما تقلق، اليوم رح نرجّعله رجله الحقيقية، مش المعدنية".

ثم اختفى صوته حين وضعت على وجهي قناع التخدير، أغمضت عيني، وشعرت أنني أغيب عن الدنيا للمرة الثالثة، لكن هذه المرة، كنت أعلم أنني سأعود مختلفًا.

بعد أن أزال الأطباء البلاتين وعدت إلى البيت، بدأت مرحلةٌ جديدة لا تقل صعوبةً عن الجراح نفسها، كانت قدمي ما تزال ضعيفة، والطبيب حذرني يوم خروجي قائلًا:

"مكان الإصابة قريب من العصب، انتبه يا صالح، أي مجهود زيادة بترجع فيها لنقطة الصفر".

ابتسمت، ولم أجب، كنت أعلم أن الخطر ما زال قائمًا، لكنّي كنت أعلم أن الاستسلام خطرٌ أكبر، فقررت أن أجعل من كلّ خطوةٍ ببطءٍ معركةً صغيرة

ضد العجز، ومع كلّ انتصارٍ بسيط، كنتُ أشعر أني أستعيد شيئًا من الحياة التي حاولت الحرب أن تسرقها مني.

في تلك المرحلة، لم أكن وحدي، كانت عائلتي هي الجدار الذي أسند عليه روحي، أمي تتابع علاجي بدقةٍ لا يعرفها إلا قلب أمٍ فقدت النوم، كلّ مرة أتحرّك فيها من السرير تمسك أنفاسها، كأنّ حركتي قد تُعيد فتح الجرح من جديد، أما أبي فكان يرافقني إلى الطبيب كرفيقٍ صامتٍ لا يتعب، يحمل حقيبتي بدلًا عني، ويقول لي كل مرةٍ ونحن نغادر العيادة:

"أنت بخير يا صالح، والله ما خلق الوجع إلا لحكمة".

وأما ناجي، فكان يذكّرني في كل لقاءٍ بحديث النبي ﷺ:

"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف".

كان يرددها وكأنه يزرعها في صدري مثل دعاءٍ لا يموت، ثم هناك فايز، ذلك الرفيق الذي لم يتركني لحظة، ظلّ حولي خلال الشهور كلها، منذ لحظة خروجي من المستشفى حتى آخر ضمادٍ أُزيل عن قدمي، كان يأتي كل يومٍ يحمل ضحكته التي لا تخطئ، يجلس بجانبي، يشغّل الأناشيد القديمة التي كنّا نسجلها ونحن أطفال، يضحك حين يسمع أصواتنا المبحوحة ويقول:

"بتتذكر أول مرة غنّينا؟ كنا مفكرين حالنا نجوم العالم".

كنت أضحك معه، لكنّ الدموع كانت تسبقني أحيانًا، كان وجوده حولي أكثر من الصداقة، كان علاجًا لا يُكتب في الوصفات الطبية، ومع مرور الشهور، بدأت أستعيد قوتي ببطءٍ وثقة، تحولت مرحلة الحذر إلى تحدٍ للظروف، عدتُ إلى التمارين شيئًا فشيئًا، أمسكتُ مضرب التنس من جديد، حتى لو لم أركض كما كنت، كنت أركض في داخلي، كل ضربةٍ بالمضرب كانت إعلانًا صغيرًا:

"أنا ما انتهيت".

وفي الوقت ذاته، عدت إلى ما أحب، إلى الناس، صرت أشارك في

الأنشطة التطوعية والإنسانية، أنزل مع الشباب في حملات المساعدات، أوزّع الطعام والبطانيات في ليالي الشتاء، وأوثق كل ذلك بكاميرتي الصغيرة التي لم تفارقني منذ الحرب، كنت أقول في نفسي:

"إذا ما قدرت أغيّر الواقع، على الأقل بقدر أوثّقه ".

بعد عامٍ من زواج ناجي، أشرق البيت من جديد بنورٍ لم نعرف مثله من قبل، ففي 23/11/2020، أنجبت زوجة ناجي طفلتها الأولى، سارة أول حفيدة في عائلتنا، وأول ضوءٍ يدخل بيتنا بعد سنواتٍ طويلةٍ من الغبار والحرب، لم تكن الولادة حدثًا عاديًا بالنسبة لنا، كأنها فتحت بابًا صغيرًا للسماء داخل بيوتنا المزدحمة بالتعب، حين اتصل ناجي في الصباح ليخبرنا، كانت أمي تبكي وتضحك في آنٍ واحد، تقول وهي تمسح دموعها بطرف خمارها:

"أول حفيدة، الحمد لله، الله رزقنا ضحكة من الجنة بعد كل الصبر يلي مرّ علينا".

أما أبي، فجلس على كرسيه في الزاوية، يُردّد بصوتٍ خافتٍ سورة الشرح، ثم رفع رأسه وقال مبتسمًا:

"ناجي صار أبًا والبيت صار فيه جدّ وجدة، الله يجعلها من حفظة كتابه".

حين دخل ناجي بعد ساعاتٍ حاملاً طفلته الصغيرة، كان المشهد كأنه لوحة من السلام، وجهه متعب لكنه مضيء، وفي عينيه تلك الطمأنينة التي لا يحملها إلا من رأى وجه طفلٍ للمرة الأولى، رفعها أمامنا وقال ضاحكًا:

"هاي الصغيرة، رح تغيّر شكل البيت مثل ما غيّرته الحرب، بس بطريقتها الأجمل".

اقتربت أمي منها أولًا، وضعتها في حضنها بخوفِ أمومةٍ قديمٍ لم يخفت يومًا، وهمست وهي تبتسم:

"يا سارة، يا بنت غزة، الله يجعل وجهك دايمًا نور وستر".

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كنتُ أراقب المشهد من بعيد، أمسك الكاميرا في يدي كعادتي، لكنني هذه المرة لم أستطع أن أضغط زر التسجيل، كنتُ أشعر أن العدسة لن تقدر أن تلتقط هذا النوع من الضوء، الضوء الذي لا يُرى بالعين، بل تشعر به في القلب، منذ ذلك اليوم، تغيّر البيت بأكمله، كلّ صباحٍ صار يبدأ بصوت سارة، ضحكتها، بكائها، خطواتها الصغيرة على الأرض، أمي كانت تقول دائمًا وهي تحملها:

"هالبيت عمره ما عرف الهدوء إلا بعد سارة".

حتى ناجي نفسه، الإمام الهادئ الجاد، صار يلين صوته حين يناديها، ويحملها إلى المسجد أحيانًا، يجلس بها في فناء الكتيبة بعد صلاة العصر، ويقول لي مبتسمًا:

"صالح، شوف، هاي سارة أول بنت بتسمع الأذان من حضني".

ضحكت وقلت له وأنا ألتقط صورةً لهما:

"وهي أول طفلة من نسل الأئمة".

ضحك الجميع، لكن في أعماقنا كنّا نعلم أن وجودها لم يكن مجرد فرحٍ عابر، بل نعمةٌ خفّفت عن العائلة ثقل السنوات الماضية، منذ وُلدت سارة، صار لبيتنا لحنٌ جديد، صوتها الصغير، ودموع أمي من الفرح، وصوت أبي وهو يقرأ الدعاء بصوتٍ مرتجف، كلها كانت تقول شيئًا واحدًا، إن الحياة مهما ضاقت، تعرف كيف تعود حين يُولَد طفلٌ في غزة.

ثم جاءت فكرة القناة، في عام 2021، جلست ليلةً طويلة في غرفتي، أتأمل الصور القديمة والإصابات والمغامرات، وفجأة خطر لي أن أفتح صفحةً جديدة، قناةً تحمل اسمي وصوتي، أردت أن يرى الناس صالحًا الذي لم يمت، صالحَ الذي يحب الحياة. وعليه ولدت قناتي على يوتيوب، بدأت أولًا بمقاطع صغيرة، تحديات بسيطة، زيارات إنسانية، رحلات قصيرة إلى أماكن يصعب الوصول إليها، كنتُ أصوّر كل شيءٍ وحدي، أحمل الكاميرا بيدٍ، وأتوكأ على العكاز بالأخرى، كنت أضحك رغم التعب، أخبر أصدقائي

عن مغامراتي، أتسلّق الجدران العالية وأقول للمشاهدين:

"يلي بشوف الجمال من هون، مش رح يخاف من الارتفاعات مرة ثانية ".

صرت أذهب إلى أماكنٍ خطرة لا يدخلها أحد، أصور البيوت المهدّمة، والبحر من فوق برج الاتصالات، وأرفع الفيديوهات كل أسبوع.

في البداية لم يكن هناك إلّا قلّة من الناس التي تشاهد ما أفعله، لكن شيئًا ما في صدقي جذب الناس، بدأت القناة تكبر، وصار اسمي يُتداول في غزة:

"صالح يلي بصور الحياة من بين الركام".

كانت سنة 2021 مختلفة عن كل السنوات السابقة، بعد الحروب، وبعد الجراح، وبعد الصبر الطويل، شاء الله أن يُنبت في بيتنا يومًا يشبه الفرح الحقيقي، في شهر آب / أغسطس 2021، تزوجت إسراء، الهادئة الطيبة، وكانت أول عروسٍ تخرج من هذا البيت، منذ أسابيع الزفاف الأولى، تحوّل البيت كله إلى خلية حياة، صوت الأغاني النسائية القديمة يختلط بتكبيرات الفرح، والجيران يبتسمون حين يمرّون من أمام بابنا المفتوح دائمًا، حتى أمي التي كانت تخبئ دموعها تحت ابتسامةٍ كبيرة، كانت تقول لإسراء:

"كبرتي يا بنتي، كنت أضمّك وأنا خايفة عليكِ من النسمة، واليوم صرتِ تودّعيننى بثوب أبيض".

أما أبي فكان يحاول التماسك كعادته، لكنه كان يشيح بنظره في كل مرةٍ يراها تمرّ أمامه بثوبها، ويتمتم بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

"الله يرضى عليكِ يا إسراء، الله يجعل حياتك سكينةً مثل ما كنتِ سكينةً بهذا البيت".

ناجي كان أكثرنا قربًا منها تلك الأيام، كان يساعد في كل شيء، كترتيب إعداد القرآن الذي سيُتلى في الحفل، وحين جاء وقت خروجها من البيت، وقف عند الباب وقال مبتسمًا:

"اذكري الله قبل ما تطلعي، وخلّي صوتك الطيب يظل في البيت بعدك".

أما أنا، فكنتُ أعيش مشاعر متناقضة لا أستطيع تسميتها، كنت سعيدًا لأنني أراها تبدأ حياةً جديدة، لكن شيئًا في صدري كان يضيق كلّما رأيتها تقترب من الباب، هي ليست مجرد أختٍ تغادر البيت، هي قطعةٌ من ذاكرة البيت نفسه، ضحكاتها في المطبخ، حضورها في الإفطار، وصوتها وهي تناديني:

"يا صالح تعال ساعدني بدل ما إنت على المكتب قاعد".

حين خرجت العروس من الباب، انسكبت فينا لحظةٌ صامتةٌ كأنّ الزمن توقف، كانت تمسك بيد أمي، وأنا أمسك بالكاميرا لأوثّق اللحظة، لكنّ يدي كانت ترتجف أكثر من العدسة، لم أستطع التصوير كثيرًا؛ لأنّ عينيّ امتلأتا بالدموع.

خرجت إسراء مزينةً بثوبٍ أبيض بسيط، وفي عينيها مزيج من الفرح والحنين، في تلك الليلة، جلسنا بعد الزفاف نحن الإخوة حول الطاولة، البيت يبدو أكبر من المعتاد، وكأن جزءًا من روحه خرج معه، قال ناجي بصوتٍ خافتٍ وهو يسكب القهوة:

"اليوم في ضوء طلع من بيتنا، بس صار يمتدّ لبيت ثاني".

ضحك أبي بخفةٍ وقال:

"هي أول عروس تطلع من البيت، الله يكتب فرحة البقية".

ضحكنا جميعًا، لكننا كنا نعلم في أعماقنا أننا فقدنا شيئًا صغيرًا لا يمكن استعادته، صوتها وهي تضحك بيننا كل صباح.

وفي عام 2022، قررت أن أرتّب حلمي أكثر، بدأت ببناء استوديو صغير في بيتي، كان لدينا شرفة "بلكونة" مطلة على الشارع، كنت أخرج إليها كل مساءٍ لأرى غروب الشمس، فحوّلتها إلى مساحةٍ للبداية الجديدة، اشتريت العوازل الصوتية، جمعت الإضاءة، واستعنت برسامٍ من الحيّ ليرسم الجدار

خلفي، طلبت منه أن يكتب بخطٍ كبيرٍ فوق الرسمة: "صالح الجعفراوي".

ومنذ تلك اللحظة، تحولت البلكونة الصغيرة إلى نافذةٍ للعالم، وبدأت قناتي تنتشر، ارتفع عدد المتابعين بسرعة، وصار الناس يشاركون مقاطعي في كل مكان، نشرتُ أناشيدي القديمة بصوتي، أعدتُ تسجيل بعضها من جديد داخل الاستوديو، وأضفتُ إليها لقطاتٍ من مغامراتي وتجاربي التطوعية، كانت الأصوات تختلط بالصور.

كان صيفُ عام 2022 في غزة يشبه وقفةَ تنفسٍ بعد غرقٍ طويل، المدينة المثخنة بالدمار كانت تبحث عن صوتٍ يعيد إليها الحياة، وصوت القرآن هو وحده من استطاع أن يفعل ذلك، في شهر آب / أغسطس، انطلقت مبادرةٌ استثنائية حملت اسم "صفوة الحفّاظ"، وانعقدت في مسجد الكتيبة غرب غزة، المسجد الذي طالما صمد أمام القصف، وبقيت مآذنه شامخةً كأنها تقول:

"ما زال في هذه الأرض من يذكر الله".

كانت الفكرة بسيطة ومهيبة، أن يجتمع خمسمئة حافظٍ للقرآن الكريم، ليقرأوا المصحف كاملًا على جلسةٍ واحدة، جلسة امتدت من الصباح حتى المساء، تسري فيها التلاوة مثل نهرٍ من النور، تولى ناجي، أخي الأكبر، منصب مدير العلاقات العامة للمبادرة، وكان صوته يُسمع في كل زاويةٍ من المسجد، يرتّب أماكن الجلسات، ويتابع تنقل القرّاء، ويطمئن على كل مجموعةٍ من الحفاظ كأنهم أبناؤه، كان يبتسم دائمًا وهو يقول:

"تخيل يا صالح، خمسمئة صوت يرتل القرآن في وقتٍ واحد، هذه ليست مبادرة، هذه كرامة".

أما أنا، فكنتُ الإعلامي الرسمي للمبادرة، أمسكت الكاميرا كما يمسك أحدهم سيفًا من ضوء، أتنقّل بين الصفوف لألتقط كل مشهدٍ وكل نغمةٍ تخرج من الحناجر الندية، أطفالٌ لم تتجاوز أعمارهم العاشرة، وشيوخٌ بيض اللحى، وشبابٌ يملأهم الحماس، كلهم يقرأون وكأن غزة كلها تتنفس

بالقرآن، كان المشهد يُبكي القلب قبل العين، حين يرتفع صوت التلاوة، تشعر أن المسجد يضيء من الداخل، كأنّ الحروف نفسها تلمع على الجدران. كل صفحةٍ تُتلى كانت تُغسل بها جراح المدينة، وكل آيةٍ كانت تردّ على القصف بسلامٍ أعمق.

وثقتُ تلك اللحظة بعدستي بكلّ حبّ، وبدأتُ أنشر المقاطع على قناتي، أرفقها بعناوينٍ قصيرة مثل: "هكذا تُشفى غزة، بصوت الحفاظ". أو "جلسة واحدة، خمسمئة قلبٍ يتلون النور".

لم تمضِ الأيام حتى امتلأت القناة بالتعليقات من كل مكان، من الضفة، من الأردن، من المهجر، وفي ختام الجلسة، اصطفّ الحفاظ جميعًا صفًا واحدًا أمام المصلّى، رفعوا المصاحف بأيديهم، وارتفعت معهم صيحة التكبير، وقفتُ خلف الكاميرا، يدي ترتجف وقلبي يخفق كأنني أول مرة أرى غزة تنطق بهذا النقاء، في تلك اللحظة، أدركت أنّ صفوة الحفاظ ليست مجرّد مبادرة، بل كانت معركة من نوعٍ آخر، معركة تردّ على الحرب بالإيمان، وتقول للعالم إنّ في غزة خمسمئة قلبٍ يحملون كلام الله عن ظهر قلب، ويحمونه كما يحمي المقاتل وطنه.

لم تكن **صفوة الحفاظ** مجرّد جلسةٍ قرآنيةٍ عابرة، بل كانت بداية مرحلةٍ جديدة في حياتي، مرحلةٍ اكتشفتُ فيها أن أعظم ما يفعله الإنسان، ليس أن يُنقذ نفسه من الألم، بل أن يُنقذ الآخرين من اليأس.

بعد انتهاء الجلسة الكبرى في مسجد الكتيبة، لم أستطع أن أبتعد عن الأطفال الذين شاركوا فيها، كنت أراهم في كل صلاة، يركضون بأقدامٍ حافية، يحملون مصاحف صغيرةً بأغلفةٍ خضراء كأنهم يحملون كنوزًا، كانوا يلتفون حولي كلما رَأوني ممسكًا بالكاميرا، ويصرخون:

"صوّرني يا أستاذ صالح! أنا اليوم ختمت سورة يوسف".

كنت أضحك، وأجلس بينهم على الأرض، أمسك المصحف مع أحدهم وأقول ممازحًا:

"خلينا نشوف، إنت متأكد إنك حافظها ".

فيضحكون، وتختلط ضحكاتهم بتلاوتهم، فتبدو اللحظة وكأنها صلاةٌ خفيفة بطعم الطفولة، أحببت هؤلاء الأطفال كما لم أحب شيئًا من قبل، كنت أرى في كل واحدٍ منهم نسخةً صغيرة من ناجي وأنا حين كنا نحفظ في صغرنا، كنت أراهم وأتذكّر صوت أبي حين كان يوقظنا للفجر، وصوت ناجي وهو يراجع معنا آياتٍ من سورة الكهف قبل الجمعة، فقررتُ أن أجعل من هؤلاء الأطفال أبطالًا للقناة، بدأتُ أخصّص أيامًا أسبوعية لتصوير أنشطتهم، أجمعهم في ساحة المسجد أو في الحديقة القريبة، وأقيم لهم مسابقاتٍ قرآنيةً خفيفة على طريقتي.

كنت أبدأ الحلقة بعبارةٍ ثابتة أقولها بصوتٍ متحمس:

"يا أبطال غزة اليوم بدنا نختبر حفظكم للقرآن".

ثم أطرح عليهم أسئلةً بسيطة:

"مين بكمللي أول آية من سورة الرحمن؟" "وين وردت الآية يلي فيها كلمة سلامًا؟"

الطفل الذي يجيب بسرعة كنتُ أقدّم له الحلوى كهديةٍ رمزية ويقف أمام الكاميرا، وأقول بابتسامة:

"هيك بكون فاز معنا بهدية، لأنه حافظ وشاطر".

أما الأطفال الخجولون الذين يخطئون، فكنت أقترب منهم وأهمس في أذن أحدهم:

"ولا يهمك يا حبيبي، ربنا بحب يلي بيحاول، احفظها اليوم وبكره بنرجع نصورها مع بعض".

كنت أرى الفرح في عيونهم يشتعل، الفرح الذي لا تمنحه الهدايا، بل الكلمة الطيبة، ولأنني لم أرد أن تبقى هذه اللحظات حبيسة المكان، كنت أوثّقها كلها بعدستي، من ضحكاتهم، تصفيقهم، تسابقهم في الإجابة، حتى

نظراتهم حين يُمسكون المصحف بكل هيبة، ثم أعود مساءً إلى البيت، أجلس أمام الحاسوب، وأبدأ بترتيب المقاطع واحدًا تلو الآخر، أضيف إليها مؤثراتٍ خفيفة، ومقاطع أناشيدِ من صوتي، وأحيانًا كلماتٍ مكتوبة على الشاشة مثل: "جيل القرآن، أمل غزة"..

ثم أرفع الفيديو على قناتي، وفي كل مرةٍ أفعل ذلك، كنت أشعر أنني لا أنشر مقطعًا، بل أزرع ضوءًا في الناس، بدأت القناة تنمو بشكلٍ غير متوقع، صار الأهالي يرسلون لي أبناءهم للمشاركة في الحلقات، والمراكز القرآنية تتواصل معي لتغطية أنشطتها، حتى صرت أتنقل بين المساجد والمدارس، أوثّق كلّ ما يتعلق بالتحفيظ والأنشطة القرآنية.

في إحدى المرات، ذهبتُ إلى أحد المخيمات شمال غزة، حيث يجتمع الأطفال في خيمةٍ بسيطةٍ من القماش، هناك، جلستُ بينهم على الأرض وقلت لهم:

"مين فيكم بده يحفظ سورة العصر".

فرفع الجميع أيديهم، ابتسمت وقلت: "طيب بنحفظها كلنا سوا".

رفعوا أصواتهم وهم يرددون: " **وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** "، كانت أصواتهم تتقاطع مع أصوات الطيور، شعرت أني أعيش وسط مشهدٍ من الجنة، حتى ناجي نفسه كان يتابع مقاطعي ويعلق مازحًا:

"صالح، أنت مش إعلامي بعد اليوم، أنت صرت شيخ الأطفال".

لكن الحقيقة أنني في تلك الأيام شعرت أنّي ولدت من جديد، وأنّ كل جرحٍ مرّ بي كان تمهيدًا لأرى هذه اللحظات، لحظات الإيمان البسيطة التي لا تصنعها السلطة، بل يصنعها طفلٌ يقرأ القرآن وهو يبتسم، ومع مرور الوقت، صارت **صفوة الحفاظ** مشروعًا دائمًا، يتكرر سنويًا ويتسع أكثر فأكثر، أما أنا، فصرت جزءًا لا يتجزأ منه، صوتًا وصورة، كاميرا وعدسة ودمعة، كنت أرى كيف يخرج من هذه المبادرة جيلٌ كامل، جيلٌ لا يخاف الحرب؛ لأنه يحفظ كلام الله في قلبه، حينها فقط، أدركت أنّ دوري لم يعد مجرّد توثيقٍ

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

للأحداث، بل صار رسالة.

وفـي صباحِ الثاني من أيلول / سبتمبر عام 2022، امتلأ بيتنا بصوتٍ لم يشبه أي صوتٍ سمعناه من قبل، بكاءُ صغيرٍ ناعمٌ كأنه تغريدة حياةٍ فـي وسط الركام، فـي ذلك اليوم، وُلد عمر، ابن إسراء، وكان ثاني حفيدٍ للعائلة بعد سارة، ابنة ناجي الكبرى، كانت إسراء قد أشرقت من جديد فـي عيوننا، وجهها يضيء رغم التعب، وصوتها يتهدّج بالفرح وهي تحتضن وليدها الأول، أمّي لم تفارقها لحظة، كانت تنظر إلى عمر وكأنها ترى فيه كل أحلامها التي نجت، تقبّله وتهمس:

"يا هلا بابن بنتي الحلو، الله يحميك يا تيتا".

أما أبي، فجلس فـي زاوية الغرفة، يحمل المصحف بيده، ويقرأ بصوتٍ خافتٍ سورة مريم، ثم نظر إلينا جميعًا وقال:

"كل مولودٍ يأتي برزقه، لكن هذا الصغير جاء ومعه بركة الهدوء بعد كل صبر".

أنا لم أستطع إخفاء دموعي، كنتُ أرى فـي هذا الطفل معنىً أعمق من مجرد ميلادٍ جديد، كنت أراه وعدًا صغيرًا من الله بأن الحياة ما تزال ممكنة، حتى فـي غزة التي تجرّعت الموت ألف مرة.

فـي اليوم التالي، حين عدنا جميعًا إلى البيت، تحول المكان إلى ما يشبه العرس الصغير، سارة بنت ناجي التي لم تتجاوز وقتها السنتين، كانت تدور فـي الغرفة حول المهد، وتقول بصوتها الصغير:

"هذا عمر؟ هذا عمر تبع خالتي؟"

ضحك ناجي وقال لها:

"نعم، وهذا ابنك بالحُب، رح تلعبوا سوا لما تكبري شوي".

كنا جميعًا نشعر أن العائلة صارت أكبر وأدفأ، أن الوجع الذي سكننا طويلاً بدأ يتراجع خطوةً إلى الخلف، وجود عمر وسارة فـي البيت كان يشبه

ضوءًا جديدًا يدخل من الشرفة، ضوءٌ صغيرٌ لكنه كافٍ ليُبدّد العتمة عن قلوبنا، ومنذ ذلك اليوم، صار صوت الأطفال هو الموسيقى اليومية في بيتنا، ضحكات سارة، وصراخ عمر حين يجوع، وصوت أمي وهي تهدهده بآياتٍ من القرآن.

عند زواج ناجي وإسراء، تغيّر شكل العائلة كما يتغيّر وجه غزة بين الحرب والهدوء، لم يعد البيت كما كان، كبر بالحبّ، وليس بالحجارة، صار صوته أهدأ، لكن دفأه أعمق، وصار لكل زاويةٍ فيه، حكاية.

أمي ما زالت تستيقظ قبل الجميع، تُعدّ القهوة لأبي وتقرأ وردها الصباحي بصوتٍ خافت، وأبي يجلس على الكرسي الخشبي أمام النافذة، يراقب المارة ويمسح على لحيته البيضاء وكأنه يحمد الله بصمتٍ طويل، أما ناجي، فكانَ إمام مسجد الكتيبة وتم تعيينه بشكلٍ رسمي، وزوجته تشارك أمي في كل المناسبات، وياسمين في البيت تساعد أمي، وإسراء مع ابنها وزوجها، وميساء بين الجامعة والعمل، وعلي صار أكثر شقاوةً من أي وقتٍ مضى، لكن وسط كل هذا الحراك العائلي، كنت أعيش معركتي الخاصة، معركة العودة إلى نفسي، إلى قدميّ اللتين حاول الرصاص أن يصادرهما.

بعد شهورٍ من العلاج الطويل، قررت أن أعود إلى رياضة تنس الطاولة، تلك التي كانت أول حبٍّ في حياتي. كان القرار صعبًا، لأن الطبيب حذّرني قائلًا:

"رجلك يا صالح مش مثل قبل، أي حركة غلط ممكن تأذي العصب".

لكنّي لم أقبل أن تكون الرصاصة نقطة النهاية، رجعت إلى نادي فلسطين، المكان الذي صنع بدايتي منذ كنت مراهقًا في الثالثة عشرة، دخلت القاعة لأول مرة بعد شهور طويلة، رائحة الخشب، صوت الكرة، صدى الضربات على الطاولة، كل شيءٍ كان يوقظ بداخلي ذاك الولد الذي لم يمت يومًا، استقبلني مدربي القديم نائل سمارة بابتسامةٍ حنونة، فتح ذراعيه وقال:

"رجعت يا بطل؟ قلتلك زمان: البطل ما بتقاعد، البطل بتأخر شوي".

منذ ذلك اليوم بدأت التمرينات ببطء، كل ضربة كانت تشبه معركة صغيرة بين الألم والإرادة، كنت أتعلم كيف أوازن جسدي من جديد، كيف أستخدم ساقي السليمة لتساعد المصابة، وأحيانًا كنت أسقط على الأرض من شدة التعب، لكنّي كنت أنهض دائمًا، كان المدرب نائل يقف بجانبي في كل مرة أتعثر فيها، يربت على كتفي ويقول:

"يلي صمد على حدود غزة، ما بتغلبه كرة".

شهور قليلة مرت، وكنت أستعيد لياقتي شيئًا فشيئًا، حتى صرت أشارك في البطولات المحلية، في كل مباراة، كنت أسمع صوت الجمهور يهمس باسمي، ليس لأنني فزت، بل لأنني عدت بعد أن حسب الجميع أنني انتهيت.

وفي نهاية العام، حققت ما لم أكن أتخيله، بطولة على مستوى قطاع غزة مع نادي فلسطين، وقفت على المنصة، الميدالية في رقبتي، ورجلي ترتجف من الألم لكنها تضحك، في تلك الفترة، دخلت إلى حياتي روحٌ صغيرة غيّرت كل شيء، سارة ابنة ناجي، كانت حينها قد بدأت تمشي، وصوتها الطفولي صار أجمل ما أسمعه بعد كل تدريب، كنت أعود من النادي متعبًا، أفتح الباب، فتأتي تركض نحوي، أو بالأحرى تتمايل بخطواتها الصغيرة ،وتصرخ بصوتها المبحوح:

"عمو صالح".

كانت أول مناداةٍ تُعيد لي طفولتي في لحظة، تحملني كأنها أنا الصغير، وتجلس على قدمي المصابة دون خوف، كأنها تعرف أن وجودها وحده يشفي، صارت سارة جزءًا من يومي، أرافقها في الحديقة، ألعب معها بالكرة الصغيرة، أغني لها الأناشيد التي كنت أنشدها في صغري، وهي تضحك وتصفّق بيديها، كنتُ أصوّرها أحيانًا، وأضيف مقاطعها لقناتي، وأكتب تحتها:

"هي سبب كلّ ابتسامةٍ في بيتي".

كنت أشعر أنّ الله أرسلها لي كجائزةٍ بعد كلّ خساراتي، صوتها كان

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

يذكّرني أنّ كل شيءٍ يمكن أن يبدأ من جديد، حتى بعد ثلاث رصاصات، حتى بعد حروبٍ لا تنتهي، العائلة تغيّرت، نعم، لكنها لم تتبدّل في جوهرها، صارت أقرب إلى الحلم، كل فردٍ فيها يرمّم شيئًا من الآخر، وأنا، رغم الجرح، صرت أؤمن أكثر من أي وقتٍ مضى، أنّ الإنسان لا يُعرف بما أصابه، بل بما فعله بعد أن أُصيب.

في فبراير من عام 2023، جاءت الفرصة التي حلمتُ بها منذ طفولتي بطولة "WTT Feeder Doha 2023" في قطر، واحدة من أضخم بطولات تنس الطاولة في العالم، يشارك فيها أكثر من مئة لاعبٍ دولي، من آسيا، وأوروبا، والعالم العربي، حين وصلني الخبر بأنني سأشارك، جلستُ طويلًا لا أصدق. كانت يداي ترتجفان وأنا أقرأ البريد الإلكتروني الرسمي: "تم اختيار اللاعب الفلسطيني صالح الجعفراوي للمشاركة في بطولة WTT Feeder Doha 2023 ".

حينها، لم أقرأها كدعوة رياضية، بل كاعترافٍ من العالم أن صوت غزة يمكن أن يُسمع حتى من وراء الحصار، في صباح السفر، استيقظ البيت باكرًا كأننا جميعًا نسافر، أمي أعدّت حقيبتي بنفسها، وضعتْ فيها مصحفًا صغيرًا، وقطعة من تراب غزة داخل كيس صغير، وقالت لي وهي تبتسم والدمع في عينيها:

"احمله معك يما، حتى وأنت بعيد، خليه يذكّرك إنّه الأرض بتستناك ترجع".

ناجي ودّعني عند الباب، قبّل رأسي وقال بصوتٍ ثابتٍ لكنه مفعم بالحنان:

"اذهب باسم الله يا صالح، واجعل كل ضربة مضربٍ هي ضربةٌ باسم فلسطين".

ثم ابتسم وأضاف:

"وإذا فزت، لا تنسَ أن تقول في المقابلة: (من غزة جئنا، لا من فريقٍ

فقط، بل من شعبٍ كاملٍ صابر)".

كانت الرحلة من معبر رفح إلى الدوحة طويلة ومتعبة، لكنّ قلبي كان خفيفًا كما لم يكن من قبل، كلّما نظرت من نافذة الطائرة، كنت أرى في السحب شكل خريطة فلسطين.

وصلت إلى قطر مساءً، استقبلني الفريق المنظّم بابتساماتٍ ودّية، لكن شيئًا فيهم كان ينظر إليّ بإعجابٍ غامض، ربما لأن اسمي على البطاقة كان يحمل الكلمة التي يعرفها العالم كلّه:Palestine.

في اليوم الأول من البطولة، دخلت القاعة المهيبة في الدوحة الرياضية الدولية، الإضاءة البيضاء، أصوات التصفيق، وأعلام الدول مصطفّة على الجدران، وقفتُ هناك لحظة، أنظر إلى العلم الفلسطيني المعلّق بين أعلام عشرات الدول، بدأت المباريات، كانت الأصوات عالية، والمنافسة شرسة.

واجهتُ لاعبين من فرنسا، وتايلاند، ومصر، واحدة تلو الأخرى كنت أتقدّم بثباتٍ يشبه صلاة طويلة، في كل مباراةٍ كنت أسمع المدرب نائل سمارة وهو بغزة يقول عبر الهاتف:

"صالح، ركّز، صالح ركّز".

كنت أبتسم حتى وأنا أتعرّق، أضرب الكرة وكأنّي أرسل سلامًا من غزة إلى العالم، وبعد سلسلةٍ من الانتصارات، وصلتُ إلى دور الـ16، كانت القاعة شبه ممتلئة، الكاميرات موجهة، والمعلق يرفع صوته قائلًا:"

"اللاعب الفلسطيني صالح الجعفراوي، المفاجأة الجميلة في البطولة".

خصمي كان لاعبًا كوريًا قويًا، سريع الحركة، هادئ النظرة، كأنه آلةٌ تتقن الحساب في كل حركة، بدأت المباراة بندّيةٍ مذهلة، النقاط تتعادل، العرق يسيل على جبيني، وكلّ مرةٍ أسمع أحد المتفرجين العرب يهتف:

"يلا يلا يا فلسطين".

لكن في المجموعة الرابعة، أصابتني نغزةٌ قوية في الساق المصابة

سابقًا، لم أتوقف. أكملتُ المباراة حتى النهاية، وخسرت بفارقٍ ضئيلٍ جدًا، لكني حين صافحت خصمي، كان وجهه يبتسم باحترامٍ كبيرٍ وهو يقول بالإنجليزية:

"You played with heart, not just hands".

"لقد لعبت بقلبك، لا بيديك فقط".

ابتسمت، وأنا أعرف أن ما خسرته بالنقاط، ربحته بالمعنى، عدتُ إلى غزة في أواخر شباط من عام 2023، كانت المدينة تستقبلني برائحتها المعتادة، مزيج من البحر، والغبار، ورائحة الخبز الساخن في الصباح، الناس في المطار المؤقت كانوا يبتسمون لي دون أن يعرفوني، كأنّ شيئًا في وجهي كان يشير بأنني جئتُ من سفرٍ يشبه المعجزة، في البيت، كان المشهد لا يُنسى، أمي تبكي وتضحك في آنٍ واحد، تقول لي وهي تمسح العرق عن وجهي:

"يا الله، شكلك نحفت من التعب، بس العيون فرحانة يا صالح".

وأبي يقف إلى جانبي مبتسمًا بفخرٍ خافت، كأنه يخاف أن يُظهر سعادته علنًا، سارة، كالعادة، خطفت المشهد كله، ركضت نحوي، تسلقت على قدمي بلا خوفٍ من الجرح القديم، وصارت تضحك وتقول:

"عمو صالح صار مشهور".

ضحكت، وحملتها بين يدي، وصرت ألعب معها كالطفل، منذ اليوم التالي لوصولي، بدأت أستقبل الدعوات، مدارس تدعوني لزيارتهم وأروي قصتي للطلاب، جمعيات شبابية تدعوني للحديث عن التحدي والإرادة، وحتى إذاعات محلية تتصل لتقول:

"بدنا نعمل معك لقاء، نحكي عن تجربة صالح ابن غزة يلي وصل قطر".

كنتُ في كل مرةٍ أقول لنفسي:

"أنا ما رجعت ألعب تنس بس، أنا رجعت أحكي عن غزة بطريقة مختلفة".

في أحد اللقاءات، سألني المذيع:

"شو أول إشي خطر في بالك لما دخلت قاعة البطولة وشفت علم فلسطين؟"

أجبته:

"خطر في بالي إنّه يمكن يكون في طفل في غزة يسمعني الآن، ويفكر إنه ممكن يومًا ما يحمل العلم بنفسه، بدون خوف، بدون سلاح، بس برياضة وحلم".

منذ ذلك اليوم، بدأت قصتي تنتشر، صوري في البطولة انتشرت على صفحات الرياضة الفلسطينية، وكانت التعليقات على هذه الصور من نوع:

"هيك بدنا شباب غزة تكون".

بدأتُ أشعر أن ما أفعله صار يتجاوزني، أنّ هناك من يرى بداخلي نسخةً مصغّرةً من الحلم الذي نسيه كثيرون، لكن خلف هذا الضوء، كنت ما أزال ذلك الشاب الذي يجلس على سطح البيت كل مساء، يحمل كاميرته، ويصوّر البحر والمدينة المكسوّة بالضوء الأصفر، كانت تلك لحظاتي الحقيقية، بعيدًا عن الكاميرات.

حين أفتح دفتري وأكتب بخطٍ صغيرٍ على الصفحة الأولى:

"اللهم اجعل كل ما أصنعه في حياتي صدقةً جارية لبلدي".

بدأت أستثمر نجاحي في عملي الإعلامي، صرت أخرج بالكاميرا كل أسبوع، أصوّر قصص الناس البسطاء، أعمل تقارير قصيرة عن العائلات المكافحة، عن الأطفال الذين يدرسون على ضوء الشموع، عن الصيادين الذين يرمون شباكهم في بحرٍ محاصر، وكنت أنشرها على قناتي، الناس أحبت هذا النوع من المحتوى، صاروا يتداولونه بكثرة، وصار اسمي يُذكر في محافلَ كثيرةٍ داخل غزة:

١٧٠٥١٩٤٧٥٢

"الصحفي الرياضي، الإعلامي الشاب، صالح الجعفراوي".

حتى إن أحد المدرسين في مدرستي القديمة استضافني في طابور الصباح، وقال للطلاب:

"هذا ابن غزة يلي ما خاف، يلي انضرب ثلاث مرات وما ترك الحلم، يلي رفع اسم فلسطين في قطر".

وسط كل هذا الضوء، كنتُ كل مساء أرجع إلى البيت، أخلع الميدالية وأضعها على الرفّ بجانب المصحف، وأتأمل الجدار الذي علّقت عليه صور طفولتي مع فايز، وصورتي بالعكّازات، ثم صورتي الأخيرة وأنا أرفع العلم الفلسطيني في قطر كانت سنة 2023 بالنسبة لي سنة الطمأنينة، هدوءٌ ما قبل شيءٍ لا أعرفه، كأنّ غزة تستعدّ لهمسٍ جديدٍ من الألم.

في آب/أغسطس من عام 2023 كان شهراً لا يُنسى في حياتي. البيت كله يغلي بالفرح، الأنوار معلّقة على الجدران، وصوت أمي يرتّل الدعاء كأنها تستدعي الملائكة لتُبارك هذا اليوم، كانت ميساء أختي الصغيرة، الأقرب إلى قلبي تستعد لزفافها، منذ أسابيع، كانت تمشي في البيت بخطواتٍ خفيفةٍ كأنها تخاف أن توقظ مشاعرنا، كلما نظرت إليها بثوبها الأبيض وهي تُجربه، كنتُ أرى طفلتنا التي كانت تركض نحوي وهي تصيح:

"صالح إنت أخوي وحبيبي خليك متذكر!".

الآن صارت عروسًا، تغادر بيتنا لتبدأ ببيتٍ آخر، أبي كان يجلس في زاوية الصالة، صامتًا كعادته حين يفرح بشدّة، وأمي تحاول أن تُخفي دموعها وهي تُرتّب طرحتها الأخيرة، أما أنا، فكنت أحمل الكاميرا بيد، والميكروفون باليد الأخرى.

ميساء اقتربت منّي وهمست:

"صالح، بدّي وعد، اليوم ما بدّي أشوفك تبكي".

ابتسمت وقلت لها:

"أنا ما ببكي، بس يمكن أغني، والأغنية فيها دمعة".

حين دخلنا قاعة الزفاف في تلك الليلة، كانت القاعة تموج بالناس، ضحكات، وأصوات الأهازيج، ورائحة العطور تختلط بزغاريد النساء، على المنصة العالية، جلست ميساء بثوبها الأبيض اللامع، تحت ضوءٍ ناعمٍ يجعلها تبدو كأنها قمرٌ نزل من سماء غزة المتعبة، تقدّمتُ بخطواتٍ مترددة، وصوتي يرتجف من المزيج الغريب بين الفرح والفقد، نظرتُ إليها، ورأيتُ في عينيها كل السنوات التي كنّا فيها رفيقين لا يفترقان.

ثم بدأتُ أغني بصوتي:

" الفرحة اللي انا حاسس بيها

لا انا قادر أقولها ولا أحكيها

أختي حبيبتي وضي عيوني

من يوم ماوعينا علي الدنيا مافارقناش بعضنا لو ثانيه

علي عيني انك تبعدي عني

دمعتي مش قادر اخبيها

والفرحه اللي أنا حاسس بيها

لا أنا قادر أقولها ولا أحكيها

أختي حبيبتي وضي عيوني

لعريسها بايدي هوديها

من يوم ماوعينا علي الدنيا

مافارقناش بعضنا لو ثانيه

علي عيني انك تبعدي عني

دمعتي مش قادر اخبيها

واوعي تنسي ان انا حضنك سرك اخوكي

سندك ضهرك

واوعي تخافي

من اي حاجه

وهجيبلك حقك لو ضايقك"

صوتٌ لم يكن احترافياً، لكنه كان صادقًا إلى حدّ الوجع، كانت الأغنية بسيطة، عن البيت الذي تربينا فيه، عن ضحكاتنا في الممرّات، وعن اليوم الذي تغادر فيه لتبدأ حلمها، الناس صمتوا، حتى المصوّر نسي الكاميرا للحظة، وأنا أغنّي وأرى أمي تمسح دموعها، وأبي يُخفض رأسه كي لا يظهر تأثره، وهي ميساء، تبتسم وتبكي في الوقت ذاته، ثم رفعت يدها الصغيرة ولوّحت لي من بعيد، حين انتهيتُ من الغناء، لم أسمع تصفيقًا أولاً، بل سمعت تنهيدةً جماعية من الحضور، كأنّ الجميع شعروا أن هذه الأغنية لم تكن للعروس فقط، بل لمدينةٍ بأكملها تودّع أبناءها واحدًا تلو الآخر.

في تلك الليلة، حين انتهى الزفاف، عدتُ إلى البيت وحيدًا لأول مرة، البيت هادئ بشكلٍ غريب، كأنّ شيئًا منه غادر مع ميساء، جلست على سريري، نظرت إلى صورةٍ قديمةٍ تجمعنا ونحن نضحك على السطح، ثم قلت لنفسي بهدوء:

"كبرنا يا ميساء، والله كبرنا".

لم أكن أعلم أن تلك الليلة التي غنّيتُ فيها للعمر الجديد، ستكون آخر ليلةٍ يغنّي فيها قلبي قبل أن تصمت السماء، لم يكن آب / أغسطس من عام 2023 مجرّد شهر زفافٍ وفرحٍ عائلي، بل كان أيضًا شهرًا من النور الذي غمر غزة بأكملها، فبعد أيامٍ قليلةٍ من زفاف ميساء، كنا جميعًا على موعدٍ مع حدثٍ آخر، أكبر من الفرح، وأقدس من أي احتفالٍ دنيوي، انطلاق **صفوة الحفاظ – النسخة الثانية.**

@ART_OF_BOOK

في صباح 14 آب/ 2023، استيقظتُ على صوت أبي وهو يقرأ من سورة الأنفال بصوته الخاشع، ثم قال لي بابتسامةٍ فيها نور الرضا:

"اليوم يوم القرآن يا صالح".

كانت الشوارع المؤدية إلى مسجد العمري الكبير في قلب المدينة مزدحمةً على غير العادة، الناس تمشي بهدوءٍ مهيب، والأطفال يحملون مصاحفهم الصغيرة، كأنّ غزة كلها تتوضأ بالنور قبل الدخول إلى بيت الله، دخلنا المسجد، والمشهد أمامي لم يشبه شيئًا رأيته من قبل، صفوفٌ طويلة من الحفاظ، أكثر من ألفٍ وأربعمئةٍ وواحدٍ وسبعين حافظًا وحافظةً، يجلسون على الأرض في حلقاتٍ منتظمة، وكلٌّ منهم يستعدّ ليبدأ سرد القرآن كاملًا في جلسةٍ واحدة.

كانت النسخة الأولى قبل عامٍ في مسجد الكتيبة، لكنّ هذه كانت شيئًا آخر، موجةٌ من النور تمتدّ من المحراب حتى أبواب السوق القديم، ناجي كان في مقدّمة التنظيم.

بثوبه الأبيض وابتسامته الهادئة، يتنقّل بين الحلقات، يُشجّع هذا، ويهمس لذاك، وفي صوته شيءٌ من الوقار الذي يجعل حتى الأطفال ينصتون له كما لو كان إمامهم جميعًا.

كان المدير العام للمبادرة، لكنّه بدا وكأنه أبٌ لآلاف الأبناء، أما أنا، فكنت أحمل الكاميرا بين يدي، أتنقّل بين الصفوف، أوثّق المشهد لحسابات المبادرة على مواقع التواصل، أكتب العناوين، وأرفع الصور، وأحاول أن أمسك بالدهشة في كل وجهٍ أراه، كل صوتٍ كان يذكّرني أن في غزة، رغم الدمار، ما زال هناك من يحفظ كلام الله غيبًا، كانت ياسمين تجلس بين الحلقات، تتلو القرآن بصوتٍ خاشعٍ عذب، وقد حفظته منذ سنواتٍ، لكنها أصرت أن تكون واحدةً من الساردين، وقالت لي حين مررت قربها بالكاميرا:

"بدي أعيش هذا اليوم من البداية من أول بسم الله الرحمن الرحيم".

ضحكت وقلت لها:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

"كأنكِ بتحفظيه للمرة الأولى".

في الصفوف الخلفية، كانت أمي تجلس مع النساء، بجانبها أبي الذي كان يسمّع لبعض الحفاظ الصغار، صوته يعلو بالتصحيح والترتيل، وعيناه تلمعان من الفخر والرهبة، كنت أراهم من بعيد، وأشعر أن هذا اليوم ليس مجرد فعالية، بل صلاةٌ طويلةٌ تُقام باسم العائلة كلها.

عند الظهر، ارتفعت أصوات السرد الجماعي، الآلاف يقرؤون معًا كأنهم قلبٌ واحد، الهواء في المسجد كان دافئًا بنورٍ غريبٍ، وأنا أقف على المنبر بالكاميرا، دموعي تنزل دون إذن، قلت في نفسي: "لو رأى العالم غزة الآن".

انتهى السرد مع غروب الشمس، الوجوه منهكة، لكنها مطمئنة، والناس تخرج من المسجد كما يخرج الحجاج من عرفات، اقترب مني ناجي، صافحني وقال مبتسمًا:

"ما أجمل أن يكون ختام الصيف بالقرآن".

ضحكنا، ولم نكن نعلم أن هذا الضوء الذي غمرنا في آب 2023 سيكون آخر دفعة من الطمأنينة قبل أن تنطفئ الكهرباء عن غزة، وقبل أن تعود السماء لتُعيد امتحانها من جديد.

وفي صباح الثاني من أيلول/سبتمبر لعام2023 ارتفعت زغرودة أمي تملأ المكان دفئًا ودهشة:

"الحمد لله، رُزق ناجي بمولودةٍ جديدة".

توقفتُ عن كلّ شيء، أمسكتُ هاتفي، ورأيت اسم ناجي على الشاشة قبل أن أسمع صوته المرتجف من الفرح:

"صالح، الحمد لله، صارت عنا بنت ثانية، سمّيناها رندة".

ضحكتُ دون وعي، وكأنّ العالم عاد يفرز ألوانه بعد طول رماد. قلت له:

"مبارك يا أبو عامر، ربّنا كريم ما نسيك".

ضحك بصوته الهادئ المعتاد، وقال:

"سبحان من يُعطي في الوقت الذي يراه هو مناسبًا، أنا كنت أُدعى أبا عامر منذ تزوجت، على اسم أبي، لكن ربّنا لم يكتب لي ولدًا حتى اليوم، واليوم رزقني الله رندة، والله يا صالح، وكأنّي ولدت أنا من جديد".

في المساء، ذهبنا جميعًا لزيارتهم، كانت رندة نائمة بين ذراعي أمها، وجهها الصغير كالقمر، وبين حاجبيها خطّ رفيع يشبه تمامًا ملامح أبيها، ناجي جلس بجانبها، ينظر إليها وكأنّ كل الحروب غابت عن ذاكرته للحظة، وسارة الصغيرة كانت تقفز حول رندة وتقول بحماسها المعتاد:

"عمو صالح، صار عنا بيبي جديدة".

أما أمي، فجلست عند رأس المولودة، تقرأ عليها المعوذات وتقول بصوتٍ يختلط بالدموع:

"اللهم اجعلها رندة في رياض الجنة، وازرع في حياتها ما فقدناه نحن من أمان".

تلك الليلة لم تكن عادية، كانت ليلة ميلادٍ جديدةٍ للعائلة كلها، كأنّ الله أراد أن يزرع في قلب ناجي نبتة صبرٍ جديدة، وفي قلب غزة نفسها نغمةً صغيرة تقول:

"ما زال فينا من يولد رغم الموت".

بعد أيامٍ قليلةٍ من تلك الليالي الهادئة، جاء السابع من أكتوبر لعام 2023، اليوم الذي انقلب فيه وجه المدينة، واستيقظت فيه غزة على النار بدل الضوء، استيقظتُ عند السادسة صباحًا على أصواتٍ لم أعرفها من قبل، اهتزّ البيت، ورائحة البارود اخترقت الجدران، صوت أمي كان أول ما سمعته وهي تصرخ من الغرفة المجاورة:

"صالح! صالح! في قصف".

قفزتُ من سريري، فتحت النافذة بسرعة، فرأيت السماء تمتلئ بخطوطٍ

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

من النار، صواريخ تعبر فوق المنازل كسهامٍ من لهب، وصوت الانفجارات يهزّ القلب قبل الجدران.

لم أنتظر أكثر، أمسكت الكاميرا، وخرجتُ إلى الشارع حافي القدمين تقريبًا، الهاتف في يدي، والمؤذن في السماء يصمت من شدّة الانفجار، بدأتُ التسجيل فورًا، وجه الكاميرا نحوي، والسماء المشتعلة خلفي، الدخان يملأ المشهد، والصواريخ تمرّ فوق رأسي كأنها تبحث عني، صرختُ بصوتٍ مبحوحٍ، لكنه كان أقرب إلى التكبير منه إلى الخوف:

"الله أكبر... الله أكبر".

كنتُ أرتجف بين الرعب والإيمان، بين غريزة النجاة وواجب الوجود، صوّرتُ نفسي والشارع من حولي، الأطفال يركضون، النساء يصرخن، والسماء تمطر نارًا على المدينة التي لم تكن تعرف إلا الحصار، رفعتُ المقطع فورًا على صفحتي في الإنستغرام، وكتبت تحته فقط:

"غزة الآن... السماء تتكلّم".

لم أتخيّل أن هذا الفيديو القصير سيُغيّر حياتي، خلال ساعات، انتشر المقطع انتشار النار في الهشيم، شاهدَهُ عشرات الآلاف، ثم الملايين، وتناقلته القنوات الإخبارية في كل مكان، صرتُ أقرأ التعليقات التي تنهال عليّ من كل لغات العالم:

"من هذا الشاب الذي يكبّر تحت الصواريخ؟"

لكن بينما كانت الأرقام تتصاعد على الشاشة، كنت أنا في المكان نفسه، أركض بين الحارات والغبار لا يفارق عيني.

في التاسعة صباحًا تقريبًا، وصلتني أول رسالة من أحد أصدقائي في الدفاع المدني:

"صالح، مجمع الشفاء مليان إصابات بدنا حدا يوثق الوضع".

لم أتردد، وذهبت مسرعًا إلى هناك، حين وصلت إلى مجمع الشفاء الطبي،

تجمّد المشهد أمامي. مئات المصابين في الممرات، دماء على الأرض، ورائحة الدخان مختلطة برائحة المطهّرات، المسعفون يركضون، الأطباء يعملون دون توقف، وأصوات التكبير تمتزج بالبكاء، أخذت الكاميرا، وبدأت التصوير من مدخل الطوارئ، كل لقطةٍ كانت كأنها طعنة.

ممرضةٌ اقتربت مني، وجهها مغطّى بالعرق والغبار، وقالت بصوتٍ مخنوق:

"صور يا صالح... ".

رفعت الكاميرا، وركّزت على الأيادي الممدودة، على الملامح المغبّشة بالدموع، على طبيبٍ شابٍ يجثو على الأرض وهو يحاول إنعاش طفلٍ صغير، لم أستطع أن أتمالك نفسي، دموعي انهمرت داخل العدسة، لكنّي أكملت التصوير؛ لأن البكاء في غزة لا يوقف الواجب.

مع غروب ذلك اليوم، لم يكن في المدينة ضوءٌ سوى ضوء النار، السماء حمراء كالجمر، والأرض رماد، في اليوم الثاني من الحرب، المشهد صار أشدّ من اليوم الأول، الأرض مغطاةٌ بالبطانيات، تحت كل بطانية جسدٌ غائب، ورائحة الموت لا تترك الممرات.

بعد أسبوعٍ واحد، صار اسمي معروفًا في كل نشرات الأخبار، الناس من الخارج يكتبون لي رسائل دعمٍ وبكاء، لكنّي كنت أشعر بثقلٍ لا يُحتمل، فكل مشهدٍ أصوره كان يعني بيتًا آخر يُمحى من الوجود، كنت أعود كل ليلةٍ إلى البيت، أجلس على الأرض، أفتح حاسوبي الصغير وأراجع اللقطات، وأقول في نفسي:

"يا الله، كم من الجمال يُمحى دون أن يُرى، وكم من الألم يُعاد بثّه آلاف المرات".

ومع كل يومٍ يمرّ، كانت الحرب تزداد ضراوة، لكنّي لم أتراجع، كنت أقول في أحد المقاطع التي سجّلتها لنفسي:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

"اسمي صالح الجعفراوي، أنا مش صحفي محترف، أنا ابن غزة يلي قرّر يصوّرها قبل ما تختفي من الخريطة".

كنت أؤمن أن الكاميرا ليست آلة، بل وصيّة، كانت سلاحي الوحيد ضد النسيان، وصوتي الذي يُذكّر العالم أن الحياة هنا لم تمت بعد، وهكذا، منذ صَباحٍ كبَرتُ فيه تحت الصواريخ، إلى ليالٍ صرتُ فيها عيون الناس، تحوّل الخوف إلى مهنة، والوجع إلى شهادة، وصار اسمي، دون أن أدري، أحد أصوات غزة التي لا تسكت حتى وهي تحترق.

في يوم 17 تشرين الأول 2023، اليوم الذي انكسرت فيه كل المفاهيم الإنسانية، وصار حتى الدعاء يُقال من خلف الدخان. المشهد الذي جعلني، وكل من شاهدَهُ، يشعر أنّ النار خرجت من الأرض ولم تأتِ من السماء، كان الليل قد بدأ يهبط على غزة ببطء، حين دوّى الانفجار الذي لم يُشبه أي انفجارٍ سمعناه من قبل، لم يكن صوته، بل موجته، هي التي مزّقت الهواء وأدخلت الرعب في صدور الناس، كنتُ في الشارع القريب من مستشفى المعمداني، أتحدّث مع أحد زملائي، حين اهتزّت الأرض من تحتنا، وارتفع عمود من النار كأنّ جهنّم فتحت بابها في قلب المدينة، ركضنا باتجاه المستشفى الذي كان كومةً من الرماد البشري، لم يكن هناك جدران، لم يكن هناك ممرّات، كان كلّ شيءٍ متفحّمًا، الهواء نفسه صار نارًا، الناس يركضون بلا اتجاه، يصرخون بأسماء أحبّائهم وسط أكوامٍ من اللحم المحترق، رأيتُ طبيبًا أعرفه يركض وهو يصرخ:

"ما ضلّ إشي من الناس! ما ضلّ وجوه".

الأرض أمامي كانت مليئة بجثث الأطفال، بعضهم بلا رؤوس، وبعضهم أذرعهم الصغيرة ممسوكة بأيدي أمهاتهم المتفحمة، أحد الرجال كان يحمل جثة ابنه، لكن الجثة كانت نصفها مفقود، قال لي وهو يلهث:

"كان يضحك قبل دقيقة، بس قبل دقيقة".

كلّ مترٍ في المكان كان يحمل روحًا خرجت للتو، لم أعد أميّز بين الحيّ

والميت، بين مَن يصرخ ومَن لا يقدر على الصراخ، الأجساد متكدّسة فوق بعضها، الدماء تجري كأنّها تبحث عن طريقٍ للهرب من المشهد، طفلة صغيرة كانت تجلس قرب جثة أمّها، وجهها أسود من الدخان، تحاول أن توقظها بيديها الصغيرتين وهي تقول بصوتٍ مخنوق:

"قومي يا ماما، خلينا نروح البيت".

كان هناك أكثر من خمسمئة شهيد، في لحظةٍ واحدة، رجال، نساء، أطفال، شيوخ، مرضى، كلّهم احترقوا داخل مكانٍ كان ملجأ للنجاة، لم يعد هناك فرقٌ بين سريرٍ وغرفةٍ وإنسان، كلّ شيءٍ انصهر، رأيت أشخاصًا لم يبقَ منهم سوى قطع لحمٍ ذائبة، كأنّ النار صاغتهم من جديد بشكلٍ لا يُشبه البشر، بعض الأجساد كانت لا تزال تُصدر صوتًا خافتًا، صوت احتراقٍ يتنفس، اقتربتُ لأصوّر، لكنّ يدي لم تتحرك، في تلك اللحظة فهمت معنى "القيامة الصغرى"، لم يكن هناك ليل أو نهار، فقط وهجٌ أحمر يُضيء العيون ويُطفئ الأرواح، الناس تجمع الأشلاء في أكياس بلاستيكية، والبعض يحمل ما تبقّى من أحبّائها في أغطيةٍ طبية، أحدهم كان يجمع أصابع ابنه في كيسٍ صغير، آخر يبحث عن رأس زوجته بين الركام، ورجلٌ مسنّ جلس على الرصيف، ينظر في الفراغ ويقول لنفسه:

"كلهم كانوا هون... كلهم".

عندما رفعتُ الكاميرا لأصوّر، لم أصوّر المشهد فقط،بل صوّرت انهياري، كنتُ أبكي خلف العدسة، وصوتي المرتجف خرج في التسجيل، وقمت بنشره على الإنستغرام،وكتبتُ فقط:

"المعمداني أكبر مجزرة في القرن".

الفيديو انتشر كالنار التي صنعته، شاهدَهُ العالم كله، لكنّي كنتُ أعرف أنّ الكاميرا أيضًا خانت الحقيقة؛ لأن ما رآه الناس لم يكن إلا ظلًّا خفيفًا من الجحيم الذي عشته هناك.

ومنذ تلك الليلة، صار صوت المعمداني يسكنني، كلما سمعتُ انفجارًا،

كنتُ أشمّ رائحة اللحم المحروق من جديد، وكلما أغمضتُ عيني، كنتُ أرى الطفلة التي تحاول أن توقظ أمّها.

كنت أقول لنفسي:

"إذا هاي مش نهاية العالم، شو ضلّ لحتى يخلص العالم؟"

كنا نعيش حينها في مربع السرايا، ذلك الحيّ الذي كان لا ينام، يضحك في النهار، ويصلّي في المساء، لكن في تلك الأيام، لم يعد شيءٌ كما كان، منذ صباح السابع من أكتوبر، تحوّلت السرايا إلى مدينةٍ من الدخان، السماء لا تُرى إلا عبر الغبار، والأرض لا تعرف إلا وقع الانفجارات، منذ أن خرجتُ إلى مجمع الشفاء ذلك اليوم، لم أعد إلى البيت، انقطعت الأخبار بيني وبين عائلتي، الاتصالات شبه معدومة، الإنترنت يتقطع كل نصف ساعة، وكل ما أسمعه من الناس: "الحيّ انقصف، برج السرايا نزل نصّه".

كنتُ أركض بين المستشفيات والملاجئ، أصوّر، أرسل، أسمع أسماءً مألوفة تختفي من القوائم يوماً بعد يوم، وكلّ ليلةٍ، كنتُ أقول لنفسي:

"بكرة بروح بشوفهم".

لكن "بكرة" لم تكن تأتي، في الأسبوع الثالث من الحرب، علمتُ أن عائلتي اضطرت إلى النزوح نحو الجنوب، القصف في الشمال صار جحيمًا لا يُحتمل، اتصل بي أبي بصوتٍ متعب، كانت الاتصالات تُقطع كل لحظة، قال لي فقط:

"ضلّك بخير يا صالح، أنا وأمك وإخوانك رايحين على دير البلح".

انقطع الخط،، ظلّ الهاتف في يدي، وصوت أبي في أذني مثل نداءٍ لم يُكمل، مرت الأيام، وأنا أتنقّل بين الجرحى والركام أعيش على الخبز الجاف والماء القليل، لكنّي لم أفكر يومًا في المغادرة، كنتُ أقول لنفسي وأنا أصوّر:

"غزة مش بس مدينة، هاي الأم يلي ما بنتركها وهي بتنزف".

غادر أهلي وإخوتي نحو الجنوب، بقيَ ناجي في الشمال برفقة زوجته وأطفاله وعائلة زوجته، وفي نهاية شهر أكتوبر، بدأت التهديدات تصلني بشكلٍ مباشر، أولها كانت عبر مكالمةٍ غامضة، صوتٌ بارد قال لي:

"صالح الجعفراوي؟ وقف تصوير؛ لأنه المرة الجاي ما رح تلحق تنشر".

لم أردّ، لكنّي فهمت المعنى، العدسة التي كانت توثّق الألم، صارت تُخيفهم أكثر من الرصاص، ونوفمبر تحديدًا في 3/11/2023، خرجتُ من الشمال متسللًا قبل الفجر، الكاميرا على صدري كأنها هوية، أبحث عن طريقٍ للهروب من مجمع الشفاء المحاصر من كل الجهات، المستشفى الذي صار كابوسًا من الحديد والنار، خرجتُ من منطقة الشاطئ، ولم يكن فيها أي روحٍ تتنفس، البيوت صامتة كأنها مقابر، الأبواب مفتوحة بلا حياة، والشوارع تمتدّ خاليةً كأنّ الزمن نفسهُ غادر المكان، كلّ خطوةٍ كنتُ أخطوها كانت تُحدث صدًى في الفراغ، تابعتُ سيري حتى وصلتُ إلى شارع الجلاء، الذي كان يومًا قلب غزة النابض، الآن بدا كمدينةٍ غارقةٍ في الظلّ، لا ضوء، لا صوت، لا بشر، الهواء باردٌ وثقيل، ورائحة الحديد والرماد تملأ أنفي، تسللتُ بين الأزقة، أتنقّل من بيتٍ إلى آخر، أبحث عن جدارٍ يحميني من العيون في السماء، كلما دخلتُ بيتًا شعرتُ كأنّي أزور أطلال أحلامٍ رحلت، ملابسُ معلّقة، صورُ عائلاتٍ على الجدران، وأكواب شاي ما زالت على الطاولة، كأنّهم خرجوا للتو ولم يعودوا.

بقيتُ أتنقّل من بيتٍ إلى بيتٍ، حتى وصلتُ أخيرًا إلى الطريق المؤدي الى دير البلح في الجنوب، تحديدًا في مستشفى شهداء الأقصى، الهواء داخل المستشفى كان ثقيلاً، ممتلئًا بالأنين والصمت في آنٍ واحد، لم يعد المكان مستشفى؛ صار مقبرةً تنتظر الدور القادم من الموت، الأطباء يجرون العمليات من دون تخدير، الممرضات يربطنَ الجروح بأقمشةٍ عادية، وكل من في المكان كان يعلم أن النهاية تقترب.

هناك، وسط الفوضى، تعرّفتُ على الدكتور جمال، شابٌ في العشرين تقريبًا، وجهه هادئ رغم كل ما حوله، وعيناه تشبهان مَن رأى أكثر مما

ART_OF_BOOK
٢٧٠٥١٩٤١٧٩٢
@ART_OF_BOOK

يستطيع بشر أن يحتمل، كان يركض بين المصابين كمن يطفئ النار بيديه، اقتربتُ منه وأنا أحمل الكاميرا، قال لي وهو يضغط على جرح أحد المصابين:

"أنت يلي بصور دايمًا".

أجبته وأنا ألهث:

"آه نعم، لازم الناس تشوف شو بصير هون".

رفع رأسه نحوي وقال بهدوءٍ غريب:

"بس الناس بزّا ما بتشم الريحة، ولا بسمعوا الصرخة، إنتَ صورتهم، بس أنا بسمعهم وأنا بخيّطهم".

تجمّدتُ لثانية، لم أعرف ماذا أقول، فقال بابتسامةٍ قصيرةٍ وسط الدخان: "صور يا صالح بس لا تنسى، كل شهيد وراه قصة ما صورتها العدسة".

منذ تلك الليلة، صار الدكتور جمال أكثر من صديق، كنا نلتقي في المستشفيات الميدانية، هو يُضمّد الجراح، وأنا أوثّقها، كنا نعمل بصمت، نحاول أن نجعل من كل صورةٍ شفاءً صغيرًا، ومن كل جرحٍ شاهدًا على أننا لم نُخلق لنتراجع.

بتاريخ عشرين من تشرين الثاني عام 2023، ذلك اليوم ما زلتُ أذكره بكل تفاصيله، كأنه تنفّس مختلف وسط هواءٍ محمّلٍ برائحة البارود، بعد أسابيعٍ طويلةٍ من الموت والخذلان، دخلت إلى غزة قافلةٌ أردنية تحمل فوق أكتافها الحياة.

منذ الصباح، بدأ الناس يتجمّعون عند مدخل خان يونس، الوجوه المتعبة، الأطفال الحفاة، النساء اللواتي أنهكتهنّ الحرب، كلّهم خرجوا ليستقبلوا شيئًا يشبه الأمل، أصوات الناس كانت ترتفع فوق هدير الطائرات، كأنهم يريدون أن يقولوا للسماء: "لسنا وحدنا بعد اليوم".

كنتُ واقفًا بين الحشود، الكاميرا في يدي، أنظر إلى الأعلام الأردنية

ثرفرف بجانب علم فلسطين، تختلط الألوان كأنها دم واحد، الجنود الأردنيون والكوادر الطبية كانوا يفرغون المعدات بسرعة، ينصبون الخيام، يفتحون صناديق الأدوية، والتعب بادٍ على وجوههم، ولكن رأيت في عيونهم ما لم أره منذ زمن، الطمأنينة.

اقتربتُ من طبيبٍ أردنيٍ يضع شارةً عليها كلمة "الإنسانية"، قلت له:

"غزة تعبت كثير".

نظر إليّ، ويده ما زالت تمسك ضمادةً بيضاء، وقال بهدوء:

"إحنا ما تركناكم، بس الطريق كان طويل".

كلماته تلك اخترقتني أكثر من الرصاص، كنتُ أصوّر المشهد، لكنّ يدي كانت ترتجف، لم أعد أرى من خلف عدستي إلا صورة أمّي، وصورة كلّ أمٍّ كانت تنتظر دواءً لابنها ولم تجده.

المستشفى الميداني الأردني لم يكن خيامًا وحسب، كان وعدًا بالنجاة، وكان شاهدًا أنّ الدم العربي، مهما تكسّر، ما زال يجري حين تناديه فلسطين.

مع مرور الأيام، صارت الحرب تأكل نفسها، تلتهم ما تبقّى من البيوت والناس وحتى الأمل، وفي نهاية عام 2023، حدث ما لم نتخيله يومًا، الاحتلال فصل الجنوب عن الشمال، استيقظنا ذات صباحٍ على خبرٍ يشبه الكارثة، الطرق أُغلقت، المعابر الداخلية نُسفت، وكل من كان في الشمال لم يعد يستطيع العبور إلى الجنوب، ولا من هو في الجنوب يستطيع الرجوع إلى الشمال، انقسمت غزة نصفين، نصفٍ يختنق تحت الركام، ونصفٍ آخر يحاول أن يتنفس غبار الخراب.

كنتُ حينها في خان يونس، في الجنوب، أتنقّل بين المستشفيات والملاجئ، أوثّق، أساعد، أوزّع الطعام، لكنّ قلبي كان عالقًا هناك، في الشمال، فايز كان هناك، رفيق طفولتي، أخي الذي لم تلده أمي، الذي كبرنا

معًا منذ الصفّ الخامس الابتدائي، غنّينا في الإذاعة المدرسية، وصوّرنا أول فيديوهاتنا ونحن نحلم أن نُضحك العالم، في اليوم الذي أُعلن فيه فصل المناطق، أرسل لي رسالةً قصيرة على الواتساب، آخر ما استطاع:

"خليك قوي يا صالح... إذا ما التقينا هون، بنتلاقى عند الله".

وبعدها انقطع الاتصال، لا شبكة، لا كهرباء، لا إنترنت، ولا طريقة أعرف بها إن كان فايز ما زال حيًا أم صار خبرًا جديدًا في شريط القنوات.

مرّ شهران على بداية الحرب، وكان الدخان ما زال يملأ السماء كأنّها لم تتنفّس منذ زمن، الأرض تحت قدميّ سوداء، والبيوت من حولي أشباح من حجر، والناس يهمسون بأسماء من رحلوا كأنّهم يخافون أن ينسوهم، في تلك الليالي، شعرتُ أن الكاميرا خانتني، تصوّر الدمار، نعم، لكنها لا تستطيع أن تُظهر ما في القلب من وجعٍ حين تنظر في عيون أمٍّ تبحث بين الركام عن يد طفلها، كنتُ أرى كلّ شيءٍ ولا أستطيع أن أقول شيئًا.

وفي ليلةٍ من ليالي كانون الأول، جلستُ في خيمتي في الجنوب، الريح تضرب أطراف القماش كأنها تذكّرني بأنّ الخارج جحيم، والداخل اختناق. فتحتُ دفتري الصغير وكتبت:

"وينك يا إنسانيّة".

لم تكن أغنية، كانت صرخةً بصوتٍ مبحوحٍ من قلبٍ احترق، كتبتها عن كلّ من فقد بيته، عن ناجي الغائب خلف الأسوار، عن أمّي البعيدة التي لا أعرف إن كانت تنام مرتاحة هناك في قطر، عن الأطفال الذين صارت ألعابهم رصاصًا، وعن نفسي، أنا الذي كنت أبتسم للكاميرا كي لا يرى الناس رعشة الخوف في وجهي، لم يكن هناك استوديو، ولا ميكروفون، ولا طاقة، سجّلتها في سيارةٍ متهالكةٍ أغلقت نوافذها ببطانياتٍ قديمة، كلّ نفَسٍ كنتُ آخذه كان ممزوجًا برائحة البارود. صديقي أمسك الهاتف، وصوّرني وأنا أنظر للسماء التي لم تعد زرقاء.

وقلت بها:

يا حسرة العين والدمع يا جراحنا المنسية

والعالم الشاف وسمع حسوا بوجعنا شوية

قوية ياغزة اطلعي من عز جرحك وارفعي

شارة نصر رح ترجعي بزنودنا عمرانة

أبية يا غزة اسمعي يا عالية ماتخضعي

إلا لربك تركعي معنا ولا ينسانا

يا أختي لو مرة ارجعي يايما لو صوتك معي

ياروح قلبي توجعي يابا إنت جوة ضلوعي

ياحارتي اللي مدمرة يادموع عين محجرة

غزة بدماها معطرة حريتك مشروعي

وين العدالة ياعرب اغضب لدمي اللي انسكب

واجب على الأمة الغضب تجمعنا همة قوية

لجراح في صدر الطفل واتذكروا احنا أهل

عز النصر قول وفعل تنحقق الحرية

وفي الرابع من كانون الأوّل، نُشرت الأغنية على صفحتي، ومنذ اللحظة الأولى شعرت أنّها لم تعد ملكي، كانت ملكًا للوجع الجمعيّ الذي يملأ غزة، للأمّهات اللواتي سمعنها وبكينَ، للأطفال الذين ردّدوها بأصواتٍ مرتجفة، للشهداء الذين لم يسمعها أحدٌ باسمهم.

حينها أدركت أمرًا، أنّ الصوت حين يخرج من بين الأنقاض يصبح أقوى من كلّ المدافع.

في حينها الجوع في غزة لم يكن جوعًا للطعام فقط، بل جوعًا للحياة

نفسها، جوعٌ للسكينة، للكرامة، لرائحة الخبز الطازج التي نسيناها، في تلك الأيام، كانت الموائد تُفرش بالفراغ، وأصوات الأمهات تُخفي دمعها خلف ضحكاتٍ كاذبة كي لا يخاف الأطفال، الرجال يخرجون كل صباحٍ يبحثون عن لقمةٍ في مدينةٍ لم يبقَ فيها سوى الرماد، والأطفال يجمعون الأعشاب اليابسة من الشوارع ويقولون:

"بدنا نطبخ".

حتى رائحة الجوع صارت مألوفة، رائحة تختلط بالتراب والدخان، كأنها جزء من هواء غزة الذي لا يُنسى.

وفي وسط هذا الصمت الموحش، وفي يومٍ بدا كبقية الأيام القاحلة، انشقّ الأفق فجأة، سمعنا هدير طائراتٍ يقترب من السماء الرمادية، رفعنا رؤوسنا بخوفٍ كمن ينتظر الموت، لكنّنا لم نكن نعرف أن السماء ستقرّر هذه المرة أن تفتح قلبها وليس نيرانها، كانت الطائرات الأردنية تعبر ببطءٍ فوقنا، وفي لحظةٍ تشبه الخيال، بدأت المظلّات البيضاء تتفتح مثل زهورٍ سماوية، تنزل منها صناديق ممهورة بعلم الأردن، تحمل الماء، والخبز، والتمر، وأكياس الطحين.

صرخ الناس من الفرح كما لو أن المعجزة نزلت عليهم، النساء بكينَ وهن يلتقطن المظلّات، الأطفال ركضوا حفاةً خلفها، وأنا وقفتُ في مكاني لا أستطيع أن أتحرّك، في تلك اللحظة، لم أرَ طائرات، بل رأيت وفاءً عربيًا يحلّق، رأيت الأردن يمدّ يده إلينا من فوق الغيوم، كأنّه يقول لغزة:

"لسنا بعيدين، كلّما نزفتِ، نزفنا معك".

في تلك اللحظة، شعرتُ بشيءٍ لم أشعر به منذ شهور: الطمأنينة، غزة التي كانت تلتهم رمادها وجوعها، عادت لتشعر أنّها ليست وحدها.

نظرتُ إلى البحر، إلى سماءٍ ما زالت تمطر طعامًا بدل القنابل، ورفعتُ الكاميرا نحو الأفق المضيء، وقلتُ بصوتٍ مرتجفٍ لكنه مفعمٌ بالإيمان:

"يا الله، كم من مرةٍ خذلتنا الأرض، فجعلتْ السماء هي التي تطعمنا، وكم من مرةٍ ظننا أننا نسينا، فذكّرتنا بيدٍ تمتدّ من عمّان إلى غزة، لتقول لنا: الدم لا يبرد، والرحم لا يُنسى.

وبعد أيامٍ وشهور مضت من الدمار والقتل اللامبرر، وتحديدًا في شهر مارس 18/3/2024، علمتُ أنّ ناجي، كان قد أُصيب بمرضٍ في كليته، وأُدخل إلى مستشفى الشفاء قبل أيام من مغادرتي الشمال، كنتُ أحاول التواصل معه يوميًا، لكن الكهرباء كانت تُقطع، والاتصال صعب، آخر ما كتب لي في رسالةٍ قصيرة:

"ادعيلي، العملية بسيطة ".

في منتصف إحدى ليالي مارس، حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، اتصل بي أحد الأطباء الذين أعرفهم من الشفاء، كان صوته مبحوحًا، وفيه خوفٌ غريب، قال لي بسرعةٍ قبل أن ينقطع الاتصال:

"الاحتلال حاصر المستشفى، فاتوا جوّا، وأخذوا مرضى وأطباء، وفي أسرى كثير".

لم أفهم شيئًا، الخط انقطع، عاودت الاتصال مرارًا، دون جدوى، ثم وصلتني رسالة صوتية قصيرة بعدها بدقائق من أحد الزملاء في الطاقم الطبي، صوته كان يرتجف وهو يقول:

"صالح ناجي أخوك كان جوّا وقت الاقتحام، أخدوه".

سقط الهاتف من يدي، لم أصرخ، لم أبكِ، شعرتُ أن شيئًا في صدري انكسر بصمت، كأنّ الحرب قرّرت أن تأخذ هذه المرة جزءًا مني أنا، جلستُ على الأرض، رفعت رأسي نحو السماء المظلمة، وقلتُ بصوتٍ خافتٍ وأنا أتنفس الغبار:

"يا رب، إلّا ناجي يارب".

ومنذ تلك الليلة، لم أعرف للنوم طريقًا، صارت صورته في المستشفى

تلاحقني في كل مكان، وصرتُ أصوّر وجوه الناس في الخيام وكأني أبحث عنه بينهم، منذ تلك الليلة، تغيّر كل شيء، صرتُ أرى الحرب بعيونٍ مختلفة، ليست حربًا مدينةٍ فقط، بل حرب القلب على البقاء، كنتُ أقول لنفسي في كل تسجيلٍ جديدٍ أنشره: "كل مشهد بوصل للعالم، هو خطوة لحتى ناجي".

لكنّي كنت أعرف في داخلي، أن غزة تأكل أبناءها بالصمت، وأنّ بعض الذين يُؤخذون، لا يعودون أبداً، إلا في الحلم، منذ ليلةِ اقتحامِ المستشفى، أدركتُ أن الحرب لن تتوقّف عند الخسائرِ التي تُحصى، كانت تسرق منا ما لا يُحصى، الأمان، النوم، والوجوه التي اعتدنا رؤيتها صباحًا، قرّرتُ ألا أستسلم.

قلتُ في نفسي:

"طالما أنا عايش، لازم أكمّل. يمكن الله كاتبلي أشهد، مش أموت".

أمسكت الكاميرا من جديد، ورجعت إلى الشوارع المدمّرة، كنتُ أتحرّك بين الركام مثل مَن يبحث عن نفسه، كلّ مشهدٍ جديد كان يضيف إلى صدري حجراً، في كلّ حيٍّ أصِلُ إليه، كانت الناس تعرفني، يوقفني أحدهم وسط الغبار ويقول:"إنت صالح تبع الفيديوهات؟ الله يقوّيك يا ابني، احكي عنّا، لا تخلّي العالم ينسى".

كنتُ أبتسم بتعب، ثمّ أكمل التصوير، في أحد الأيام، كنتُ في شارع الوحدة، المكان الذي صار رمزاً للرماد، كانت الجرافات ترفع الركام، والناس تصرخ بأسماء أحبائها:

"يا أمّي! يا بنتي! وينكم".

صوّرتُ رجلاً يده ما زالت تمسك بيد زوجته من تحت الحجارة، لم يتركها رغم أن جسدها كان بارداً، اقتربتُ منه وسألته وأنا أرتجف:

"بدّك نساعدك نحاول نرفعها؟"

فقال وهو ينظر إليّ بعينٍ زجاجيةٍ خالية من الدموع:

"لا ترفعها... هي صارت أهون منّي، خلّيني معها شوي".

في ذلك الوقت، كان اسمي قد بدأ ينتشر أكثر من أيّ وقتٍ مضى، صفحات إخبارية في العالم كلّه تشارك مقاطعي، ومنصّات التواصل تمتلئ بصوري وأنا أركض وسط الدخان، وذات صباح، فتحت هاتفي فرأيت الرقم: مليون متابع، لم أشعر بالفرح، نظرتُ إلى الرقم طويلاً، ثمّ همستُ لنفسي:

"شو بفيد المليون إذا المليون وجه حوالينا صاروا غُبار؟".

أغلقت الهاتف، ورفعت الكاميرا من جديد، كنتُ أرى أشياء لا تُرى، أناسٌ يُسحبون من تحت الأنقاض بلا ملامح، أطفالٌ محروقون بالكامل ما زالوا متشبثين بدمًى صغيرة، ورجالٌ يركضون حاملين أجساد أبنائهم كأنّهم يفرّون من القيامة.

في إحدى المرات، وقف أحد المسعفين بجانبي وقال بصوتٍ مبحوحٍ وهو يلفّ الشهداء بالأقمشة:

"صالح، والله بطلنا قادرين نميّز حدا، الكل متشابهين بالنهاية".

نظرت إليه، فلم أجد جوابًا، رفعت الكاميرا وصورتُ يديه، كانتا ترتجفان وهما تكتبان على كيس بلاستيكي:

"شهيد غير معروف".

في المساء، كنتُ أعود إلى الخيمة التي أعيش فيها في الجنوب، أجلس أمام اللاب توب الصغير، أراجع المقاطع، وأسمع الأصوات التي سجّلتها صدفة، صرخات، دعاء، أنين، وتكبيراتٌ متقطّعة، كنتُ أسمع امرأةً في أحد التسجيلات تصرخ:

"ابني جوّا مشان الله، نزّلوا البيت عليه!"

ثمّ صوت انفجارٍ آخر يطغى على صوتها، أوقفتُ المقطع، وأغمضتُ عيني، شعرتُ أن قلبي نفسه صار ساحة حرب.

في يومٍ آخر، كنتُ قرب حيّ الزيتون، والقصف كان لا يتوقّف، رأيتُ بيتًا محترقًا بالكامل، والناس تحاول الدخول لكن النار تمنعهم، رجلٌ كان يصرخ: "أولادي جوّا اتركوني بدي أفوت".

أمسكته من كتفيه، كانت النار تقترب من الباب، قلت له: "ما بتقدر تدخل، النار قوية".

فنظر إليّ، ودموعه تختلط بالرماد، وقال جملةً ظلّت محفورةً في رأسي حتى اليوم: "إذا أولادي احترقوا جوّا، أنا شو ضللي لأعيش برّا؟".

لم أستطع أنْ أجيب، كلّ ما استطعت فعله أن أضع الكاميرا أرضًا وأبكي معه، في تلك الفترة، كنتُ أنشر مقاطع يومية، مشاهد من المستشفيات، من الملاجئ، من الطوابير الطويلة أمام المخابز، ومن الأطفال الذين يبتسمون رغم أنهم لا يملكون شيئًا، كنتُ أحاول أن أزرع شيئًا من الضوء في هذا البحر من السواد، لكن مع كلّ منشور، كنتُ أشعر بثقلٍ أكبر في صدري. لم أعد أعرف هل أصوّر لأخبر الحقيقة، أم لأحتمي منها.

في إحدى الليالي، كتبتُ على صفحتي منشورًا قصيرًا: "أنا ما بدي شهرة، أنا بدي يوم واحد بلا دم، بدي أرجع أصوّر ضحك، مش ضحايا".

وصلني عليه آلاف التعليقات من كل أنحاء العالم، لكنّي لم أردّ على أحد، وهكذا، في زمنٍ صار فيه الموت يوميًا كالأخبار، كنتُ أعيش بين الركام والعدسات، أنشر للناس ما لا يستطيعون تخيّله، وأحمل في داخلي وجوه الذين لن يراهم أحد غيري، كلّما التفتّ حولي، كنتُ أقول بصوتٍ خافتٍ وأنا أمسك الكاميرا بيدي المرتجفة: "أنا مش مصوّر حرب، أنا شاهدٌ من غزة على ما تبقّى منّا أحياء بين الشهداء".

وفي يومٍ كنتُ أصوّر بيتًا مهدّمًا في أحد أحياء دير البلح، بيتًا لعائلة الآغا، الهواء كان مشبعًا بالغبار، ورائحة البارود تلسع الأنفاس، كنتُ أتنقّل

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

بين الركام أبحث عن زاويةٍ تُظهر حجم الكارثة، وفجأةً اندفعت سحابةٌ كثيفة من الدخان الرمادي، غطّت وجهي وصدري، شعرتُ كأن الهواء انقطع عن الدنيا بأكملها، سقطتُ على الأرض ألهث وأكتم سعالًا موجعًا، كلّ نفس كان يشبه طعنة، نُقلتُ بعد ساعةٍ إلى مستشفى شهداء الأقصى، هناك، وبين صرخات المسعفين والمصابين، التقيتُ الدكتور جمال من جديد، كان وجهه متعبًا لكنّ صوته ثابت.

نظر إليّ بدهشةٍ وهو يقترب قائلاً: "صالح؟ شو يلي صار معك؟"

أشرتُ إلى صدري بصعوبة وقلتُ وأنا أتنفّس بصوتٍ مبحوح: "صورت بيت مقصوف، واتنفست الدخان، مش قادر أتنفس".

جلس أمامي بسرعة، أخذ السماعة ووضعها على صدري، استمع مطوّلًا ثم رفع رأسه وقال بجدّيةٍ لم أعهده فيها من قبل: "عندك التهاب شديد بالصدر، وغبرة متراكمة بالقصبات، بس الحمد لله، لحقناها بوقتها".

بدأ بإعطائي الأوكسجين، ثم حقنني بمهدّئٍ ومسكنٍ قوي، بينما كان يطمئنني بنبرةٍ فيها دفء غريب وسط هذا الجحيم، ابتسمت رغم الألم، ومكثتُ في المستشفى ساعاتٍ طويلة، جمال كان يمرّ عليّ بين الحين والآخر، يتأكد أن نفَسي عاد إلى طبيعته، ويضع يده على كتفي كل مرة قائلاً: "ما بدنا نخسرك يا صالح، وجودك صار ضرورة".

حين استعدتُ قدرتي على التنفس، أصرّ أن أستريح يومًا إضافيًا، لكنّي لم أحتمل البقاء في مكانٍ واحد، قلت له وأنا أتهيأ للخروج: "رح أكمل طريقي للجنوب، يمكن ألاقي هناك شوية هدوء".

ردّ بابتسامةٍ متعبة: "الهدوء مش مكان يا صالح، بدك تروح روح، بس دير بالك على حالك".

غادرتُ مستشفى شهداء الأقصى في المساء، صدري ما زال يؤلمني رغم العلاج، لكنّ فكرة التوقف لم تكن واردة، كنتُ أشعر أن كلّ ما يجري يجب أن يُوثّق، أن الكاميرا هي آخر وسيلة يمكن أن تُبقي الذاكرة حيّة في وجه

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

العدم.

توجّهتُ نحو الجنوب، إلى خان يونس، حيث مستشفى ناصر الطبي، الذي صار مركزًا للجرحى والناجين من المجازر، الطريق إليه كان أشبه بالعبور داخل مقبرةٍ مفتوحة، العربات المدمّرة على جانبي الطريق، وجثث متفحمة لا يجد أحدٌ وقتًا لدفنها، رأيتُ في إحدى الزوايا يدًا صغيرةً خارجة من تحت الركام، وفي مكانٍ آخر، دميةً سوداء من رمادٍ كانت يومًا لعبة طفلةٍ تنتظر العيد، وصلتُ إلى ناصر عند الفجر، الناس هناك كانوا يأتون بالعشرات كل ساعة، الدماء تملأ الممرات، والأرض تحوّلت إلى نهرٍ أحمر من الأوجاع، لم يكن هناك وقتٌ للبكاء، ولا مكانٌ للدهشة، كلّ ما حولي كان يفوق طاقة البشر على الفهم.

بدأتُ أصوّر، وجوهًا محروقة، أجسادًا ممزقة، أمهاتٍ يبحثن بين الأكياس عن أبنائهنّ، أطباء يصرخون لأنهم فقدوا القدرة على العمل، وممرضاتٍ منهاراتٍ من كثرة ما رأين.

في غرفة الطوارئ، طفلٌ صغير كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، وجهه مسودّ من الحروق، وعيناه مغمضتان كمن نام في منتصف الألم، أمه كانت تجلس عند رأسه تصرخ وتضرب الأرض بيديها: "رجعلي ابني يا رب، رجعه لو دقيقة".

لم أستطع النظر أكثر، نزلتُ على ركبتيّ ووضعت الكاميرا جانبًا، مسحتُ دموعي بيدي التي لم تعد تعرف الفرق بين العرق والدم، في الممرّ المقابل، مسعفٌ كان يجلس منهكًا، قال لي وهو يضحك بمرارةٍ تقطع القلب: "صالح، مش قادرين نعرف مين شهيد ومين عايش، يلي بنوصله متأخر بكون مات، ويلي بننقذه بعيش نصّ حياة".

لم أجد ردًا، فقط صوّرت يديه وهما ترتجفان، ثمّ سمعتُ صوت صراخٍ جديدٍ من الخارج، ركضتُ وأنا أحمل الكاميرا، كانوا يُخرجون أشلاء عائلةٍ كاملة من تحت الركام، خمسة أطفالٍ وأمّهم، بلا ملامح، ملابسهم ما زالت

تتصاعد منها الأبخرة، أحد الرجال كان يقول وهو يغطي وجهه: "هدول كانوا عايشين قبل دقيقة... قبل دقيقة بس".

في تلك اللحظة، شعرتُ أن صدري الذي شُفي ظاهريًا عاد ليشتعل من جديد، لكنّ النار هذه المرّة لم تكن من الغبار، كانت من الداخل، بين أصوات الأجهزة وصراخ الجرحى، كنتُ أمشي بالكاميرا بين الأسرّة أحاول أنْ أوثّق ما يحدث، كل زاويةٍ من المكان كانت تصرخ بشكلٍ مختلف، طفلٌ ينن، رجلٌ يحتضر، امرأةٌ تهمس باسمٍ مفقود.

وفجأة، شقت صرخةٌ واحدةٌ كل هذا الضجيج، صرخة امرأةٍ لم يكن فيها صوت، بل زلزال، ركضتُ نحوها، كانت تمسك بكتف أحد الأطباء وتصرخ فيه بجنونٍ موجع: "يوسف!!! ابني يوسف!! وين ابني يا دكتور؟؟! عمره 7 سنين، شعره كيرلي وأبيضاني وحلو".

كانت الكلمات تتقطع بين شهقاتها، وعيناها تبحثان في وجوه المصابين كأنها تحاول أن تنتزع وجهه من بينهم، الطبيب وقف عاجزًا، يده على جبينه، وملامحه جامدة من الصدمة، حاول أن يهدئها، لكنّ صوتها طغى على كل شيء، اقتربتُ دون أن أشعر، العدسة كانت ترتجف بين يديّ، وكل ما استطعت فعله هو أن أبقي الكاميرا مفتوحة، لم أكن أملك أن أقول شيئًا، كل الكلمات صارت خيانة، في الخلفية، كان أحد الممرضين يهمس لي: "هاي زوجة الدكتور، هي مش عارفة إنو ابنهم من بين الشهداء".

نشرتُ المقطع تلك الليلة، لم أكتب عليه سوى جملةٍ واحدة: "الأم تبحث عن ابنها في مستشفى ناصر".

في أقل من ساعة، انفجر الإنترنت، تجاوز الفيديو خمسين مليون مشاهدة خلال يومين، انتشر في القنوات العربية والغربية، الناس في كل مكانٍ أعادوه مئات المرات، كتبوا عنه: "أصعب ما رأيناه منذ بدء الحرب".

لكنّني لم أكن أرى الأرقام، كنت أرى وجه يوسف، ووجه أمّه وهي تبحث في العدم، ووجه الطبيب الذي انكسر مرتين في اللحظة نفسها، تلك

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

اللقطة، كانت صرخةً خرجت من غزة ووصلت لكل بيتٍ في العالم، ومنذ ذلك اليوم، صرتُ أخاف من الكاميرا أكثر مما أخاف من الموت، لأنها تلتقط الحقيقة كما هي، عارية، دامية، ولا يمكن التراجع عنها.

من بعد مشهد يوسف وأمه، تغيّر كل شيء في داخلي، لم تعد العدسة تفصل بيني وبين الموت، صارت جفني الثالث، كلّ ما أراه، يبقى محفوزًا خلف عيني حتى وأنا أنام، المكان حولي لم يعد يُشبه الأرض، خان يونس صارت مدينة رماد، البيوت تترنح كأنها خجِلت من الوقوف، والشوارع امتلأت بأجسادٍ فقدت أصحابها، رأيتُ رجلاً يحمل نصف جسد ابنه ملفوفًا بقطعة قماش، يمشي به بهدوءٍ كأنه يحمل رغيف خبز.

سألته: "لوين رايح؟"

قال مبتسمًا: "على البيت، بدي أدفنه بغرفته".

لم أستطع الرد، حتى اللغة شعرت بالخجل من نفسها.

في يومٍ آخر، عند حيّ البلوك 12، كنتُ أصوّر مجموعة من الناس يحاولون انتشال عائلةٍ من تحت الركام، الهواء كان مشبعًا بالغبار، رائحة الموت تلسع الأنف، وصوتُ الحجارة وهي تُرفع يشبه خفقان قلبٍ يحتضر، ثم سمعنا صرخة: "لقيتوه! لقيتوه".

ركضتُ نحوهم، طفلة صغيرة، شعرها مغطى بالرماد، عيناها مفتوحة على اتساعهما كأنهما تصرخان حتى بعد موتها، يدها تمسك دميتها الممزقة، الناس حولها بَكَوا بصمت، وأنا، لأول مرة منذ بدأت الحرب، أغلقت الكاميرا.

وفي شارع الجلاء، وجدتُ عائلةً من سبعة أشخاص داخل سيارةٍ احترقت بالكامل، الجثث متفحمة، الوجوه ذابت مع الحديد، لكن على المقعد الأمامي، كانت يد الأب ما تزال تمسك مقود السيارة - يد من فحم- لكن أصابعه مشدودة كأنه ما زال يحاول النجاة، وقفتُ أمام السيارة دقائق طويلة، أحسست أن قلبي يحترق من الداخل، وضعتُ الكاميرا على الأرض، وجلستُ أبكي، أذكرُ يومًا آخر في حيّ البساتين، كان القصف مستمرًا منذ

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الفجر، وأنا أركض مع المسعفين بين الركام، رأيت امرأة ممدّدة على الأرض، صوتها خافت، تقول: "أنا مش قادرة أتنفس، بس خذوا بنتي قبلي".

كانت ابنتها تحت ذراعها الصغيرة، وجهها الأزرق ساكن كالماء، أخذوها أولًا، لكنّ الأم لم ترَ ذلك، كانت قد لحقت بها.

أحيانًا كنت أمشي في الشوارع المدمّرة وحدي، أسمع أصواتًا تأتي من بين الركام، أنين، صرخة، دعاء، لم أعد أعرف إن كانت أصوات الأحياء، أم صدى أرواحٍ لم تكتمل قصتها بعد، كنت أقترب من كل حجرٍ بحذرٍ كمن يمشي فوق قبورٍ مفتوحة.

مرّةً رأيت كلبًا يحفر بقدميه التراب، نبش قطعة قماش فيها يد بشرية، نظر إليّ، ثم ابتعد، بكيت كأنّي رأيت نبوءة الأرض وهي تخرج ما في جوفها، لم أعد أنشر كل المقاطع. بعضها كان ثقيلًا حتى على الموت، لكنّي كنت أحتفظ بها، صارت يداي ترتجفان حين أفتح الكاميرا، أحيانًا أضغط على زر التسجيل، ثم أتركه لأنّي لم أعد أحتمل، وكلّما حاولت أن أبتسم لأمي عبر الهاتف، كانت تعرف من صمتي كل شيء. كنت أسمعها تبكي من الطرف الآخر وتقول: "يا ابني، بكفي تصور، والله خايفة عليك".

لكنّي لم أكن قادرًا على ذلك، كنت أشعر أني لو توقفت، ستموت غزة مرتين، مرة بالقصف، ومرة بالنسيان، في تلك الأيام، كنت أنام ساعتين في اليوم بالكاد، وفي كل مرةٍ أغمض فيها عينيّ، كنت أرى وجوههم، يوسف، الطفلة، الأم، الطبيب، الأب المحترق. كأنهم يجلسون حولي يطلبون شيئًا واحدًا: "احكِ عنا يا صالح، لا تخلينا نختفي".

في تلك الليلة، كنت وحيدًا داخل خيمةٍ صغيرة في الجنوب، الريح تعصف بالخارج، والدخان يلفّ المكان كأنه غيمةٌ حزينة تبحث عن صدرٍ تبكي عليه، الضوء الخافت من شاشة هاتفي كان الرفيق الوحيد، فتحت الكاميرا، وبدأت بثًّا مباشرًا، وجهي كان شاحبًا، صوتي متعبًا، لكن عينيّ لم تخفيا الشوق الذي ينهش القلب، قلت للناس:

"قديش نفسي تتعرفوا على ناجي، أخوي الكبير، سندي، الشيخ يلي كان يعلّمني كيف أقرأ القرآن بخشوع، وكيف أكون قوي حتى وأنا بضعف، ناجي الآن بأسر الاحتلال، من يوم ما أخذوه من مستشفى الشفاء وأنا ما شفت ضحكته، بس والله العظيم، إيماني إنه رح يطلع أكبر من خوفي".

توقفتْ لحظة، ابتلعتْ ريقي، والدمعة التي كنت أقاومها سقطت رغماً عني.

"بتعرفوا شو؟ كل يوم بشوف شباب مثله، ناس مظلومين، بس وجوههم منوّرة، ناجي مش غايب، ناجي موجود بدعائكم، موجود بقلبي، وكل يوم وأنا بصور، بحس كأنه بيحكيلي: خليك واقف، لا تضعف".

رفعتْ رأسي للسماء المظلمة، قلت بصوتٍ خافتٍ كأنه سرّ بيني وبين الله:

"يا رب، لا تطوّلها عليه، رجّعه إلنا سالم، خليني أشوفه مرة واحدة، بس مرة واحدة قبل ما أموت".

الناس في البث بدؤوا بكتابة تعليقاتٍ مليئة بالدعاء والدموع، لكنّي لم أقرأها، كنتُ أنظر في الكاميرا كأنّي أنظر إلى وجه ناجي، وأبتسم له رغم الانكسار.

"ناجي إذا سامعني، والله ما في يوم مرّ عليّ إلا وقلت: يا ريتك هون، ما في لقطة صورتها إلا وكنت أتخيلك بتحكيلي: زين الصورة يا صالح، لا تنس تخلي الحق يبين، يا أخي وجودك مش غايب، غيابك هو يلي بوجع غزة".

أنهيت البث، لكنّ الشاشة ظلّت مضيئة للحظات، تُظهر وجه شابٍ أنهكه الحصار، لكنّ عيونه ما زالت تُشبه الضوء، مرّت شهور طويلة من الدم والرماد، حتى صار الصمتُ نفسه مرهقًا من كثر ما سمع الصراخ، وفي صباحٍ من 25 آذار 2024.

استيقظتُ على وجعٍ لم يشبه القصف، وجعٍ لا يصدر من السماء، بل من صدر أمي، كانت قد شكت من ألمٍ في صدرها منذ أيام، لكنها كعادتها،

تخفي الوجع وتقول لي: "أنا بخير يا ابني، كل التعب بروح بآية".

لكنّ التعب هذه المرّة لم يذهب، أخبرتني ياسمين حينها عبر الهاتف أنّ والدتي تشتكي من الألم، فذهبت مسرعًا إلى المنزل في منطقة الجعفراوي، رافقناها إلى المستشفى الأوروبي، وكان صديقي الدكتور جمال في المناوبة، مدّ يده على كتفي وقال بصوتٍ فيه قلقٌ مكتوم: "خلينا نعمل خزعة صغيرة، بس نطمن".

جلستُ على الكرسي في الممر، أنظر إلى الباب المغلق، وأحاول أنْ أقرأ وجه الممرضة كلما خرجت، دقائق قليلة صارت دهورًا، حتى خرج جمال، وجهه شاحب، نظر إليّ، ولم يقل شيئًا في البداية، ثم همس كأنه يخاف من الكلمة نفسها: "صالح... في ورم، بدنا نحولها فورًا".

تجمّد الزمن حولي، كأنّ الصوت سقط من بعيدٍ جدًا، قلتُ له: "ورم؟ يعني... سرطان؟"

أومأ برأسه ببطء، وأضاف: "في أمل كبير، بس لازم تروح تتعالج برا، قطر ممكن تستقبلها".

نظرتُ إليه، إلى صديقي الذي طالما رافقني بالكاميرا في الشوارع، وها هو الآن يسلّمني ورقة تقول إن أمي مريضة، كم مرّ من وجعٍ على قلبي قبل هذه اللحظة، لكن لم يكن شيء يوجع مثل خوفك على أمك، بعد أيامٍ من التحاليل والتقارير، تقرر سفرها إلى قطر للعلاج، كنتُ أرافقها إلى المعبر، أحمل حقيبتها الصغيرة بيدٍ، وأحاول بيدي الأخرى أن أخفي دموعي، أمي كانت متماسكة، كأنّها خافت على قلبي أكثر من خوفها على نفسها، لكنّي كنتُ أعرف أن الوداع في زمن الحرب، لا يُشبه الوداع في أي زمنٍ آخر، هو وداعٌ قد لا يُكتب له رجوع، رافقتها ياسمين وإسراء وابنها الصغير عمر، بينما بقيتُ أنا في غزة مع أبي وناجي الغائب خلف القضبان، وميساء التي تتواصل معي بصوتٍ مكسور من الجنوب.

نظرتُ إلى السيارة التي تقلّهم، ثم إلى الطريق الفارغ خلفهم،وشعرت أن

البيت الذي كان يعجّ بالأصوات صار صامتًا، أنّ العائلة التي كانت تجتمع على مائدةٍ واحدة، تفرّقت على خارطةٍ من الرماد والمنافذ والحدود، ذلك البيت في مربع السرايا، الذي كان يمتلئ ضحكًا وقرآنًا وركض أطفال، صار فكرةً فقط، شيئًا نتذكّره ولا نعود إليه.

ورغم كل هذا، عُرض عليّ أن أغادر مع أمي إلى قطر، أن أكون بجانبها وأكمل دراستي هناك، عُرضت عليّ أوراق خروج، وتلقيت اتصالاتٍ من مؤسساتٍ ووكالات، قالوا لي:" اطلع يا صالح لا تظلك هون"

لكنّي رفضت، رفضتُ أن أترك غزة وهي تنزف، رفضتُ أن أصبح شاهدًا من بعيد، كنت أشعر أنّ من يغادر هذا المكان، يُغادر جزءًا من نفسه لن يعود إليه أبدًا.

قلت لهم جميعًا:

"أنا لم أُخلق لأهرب، وإن متُّ هنا، فليشهد العالم أنّي متُّ وأنا أحاول أن أكون صوتًا لها، لا ظلًّا في الخارج"

عدتُ في تلك الليلة إلى الغرفة، وضعت رأسي على الوسادة، وسمعت صوت أمي في داخلي تقول كما كانت دائمًا: "ما دام فيك إيمان يا صالح، ما في خوف"

لكنّي بكيتُ طويلًا، ليس خوفًا من الموت، بل من الفراغ الذي يخلّفه الغياب، ومنذ ذلك اليوم، صرت أعيش على اتصالاتٍ متقطعة من قطر، وصورٍ تصلني على فترات، وأخبارٍ من جمال يخبرني فيها كيف تتحسّن ببطء، لكنّي كنت أشعر أن قلبي هناك، وأن غزة صارت ثقيلة جدًا من دونها.

منذ رحيل أمي وسفر إخوتي، وغياب ناجي في الأسر، صرتُ أشعر أنّ عليّ أن أملأ هذا الفراغ بشيءٍ لا يموت، لم أعد أحتمل الجلوس والانتظار، كنتُ أرى الوجوه حولي، جائعة، خائفة، متعبة، تذكّرتُ أيامي القديمة، حين كنت أشارك في الحملات التطوعية، أوزّع الماء على المسيرات، أدخل بيوت الناس بابتسامة وأخرج ببركة دعائهم، كانت تلك الأيام تبدو بسيطة،

لكنها كانت هي الجذر الذي أعادني للحياة.

رجعتُ من جديد، ولكن بطريقةٍ مختلفة، لم أكن أبحث عن عدسةِ توثّق أو عن المتابعين، كنتُ أبحث عن معنى أعيشه، بدأتُ أزور المستشفيات المزدحمة بالجرحى، مستشفى ناصر، والأوروبي، والأقصى، كنتُ أدخلها محمّلًا بما أستطيع جمعه: خبزٌ، ماء، بطانيات، أكياس طحين، علب حليب للأطفال.

كنتُ أوزّعها على الناس بيديّ المرتجفتين، وأقول في نفسي: "هذا أقلّ مما تستحقون".

أحيانًا كنت ألتقي بمصابٍ لا يستطيع الأكل من الألم، فأجلس بجانبه وأطعمه بنفسي، وأحيانًا كنتُ أدخل قسم الأطفال، أضع في أيديهم قطع بسكويت، فيرفعون رؤوسهم إليّ بابتسامةٍ لا تشبه الدنيا، في تلك الفترة، غزة كانت تغرق في مجاعةٍ حقيقية، الأسواق فارغة، الطعام يُقاس باللقمات، والماء يُوزّع بالدموع، لكنّي كنتُ أجد طريقة، كنت أبحث عن أي بابٍ يمكن أن يُفتح، كنتُ أذهب إلى المخابز المهدّمة، أحمل أكياس الطحين على ظهري، أوزّعها في الأحياء التي فقدت كل شيء.

في إحدى الليالي، كنت أمشي في حيّ الزيتون، والظلام كثيف لا يُرى فيه إلا وهج النيران البعيدة، رأيتُ امرأة تجلس قرب بيتها المهدّم، تحتضن طفلين، وجهها شاحبٌ كالرغيف اليابس.

أعطيتها كيس طحين، فبكت، ثم مسحت دموعها وقالت: "والله يما كنت بستنى ربنا يرزقني خبز أطعميهم قبل ما يناموا".

رجعتُ في تلك الليلة إلى خيمتي أبكي بصمت، أقول في نفسي: "يا الله، قدّيش الجوع بخجّل الموت".

لم أكن أظهر في المقاطع التي أنشرها، أحيانًا كنتُ أصوّر من بعيد، وأحيانًا لا أصوّر أبدًا، ما كنت أريد شكرًا أو شهرة، كنت أريد أن أشعر أنني لا زلت إنسانًا، كل مرة كنتُ أوزّع فيها خبزًا أو بطانية، كنت أشعر أنّي أضمّد

شيئًا في داخلي، شيئًا انكسر يوم غابت أمي ويوم أخذوا ناجي، صار وجهي معروفًا في المستشفيات، كلما رآني أحد الممرضين يقول: "إجا صالح، الخير وراه".

في كل تلك الأيام، كنتُ أعود ليلًا منهكًا، أجلس وحيدًا تحت سماءٍ لا تضيء إلا بانفجارات الطائرات، أكتب في دفتري الصغير: "اليوم وزّعت ثلاثين كيس طحين، بس لسا في آلاف ما أكلوا. يا رب قوّيني، خليني أكمل".

كنتُ أؤمن أن المساعدة ليستْ مجرّد عمل، كانت صلاة من نوعٍ آخر، صلاة تُقال بالفعل وليس بالكلمة.

بعد أيامٍ قليلة، وقعت مجزرةٌ أخرى في أحد الأحياء السكنية، ذهبت إلى المستشفى كعادتي، لا أتذكّر أيّ يومٍ كان، فالأيام في غزة لم تُعَدْ تُعَدّ بالتقويم، بل بعدد الأصوات التي تفقدها المدينة كل يوم، المكان يغلي بالصراخ، نساءٌ ينادين أبناءهنّ، أطفالٌ يبكون، رجالٌ يحاولون حمل الجثث التي كانت قبل دقائق أحياء، رائحة الدم امتزجت بالدخان، وجدران الطوارئ صارت مائلة من ثقل الأنين.

في زاوية القاعة، رأيته، رجلٌ ملتحٍ، وجهه أسمر تَحمل ملامحه نورًا غريبًا، كأنّك ترى عليه أثر السجود القديم، كان صوته مبحوحًا، لكنه ثابت مثل صخرةٍ في العاصفة، اقترب من رجلٍ آخر، كان يصرخ وينهار، يمسك شعره ويضرب الأرض بقبضتيه ويقول: "يا الله ابني راح! ابني راح".

حينها التفت إلى الرّجل الملتحي، وصاح بصوتٍ هزّ القاعة كلها: "متعيّطش يا زلمة، إنت زلمة، كلنا شُهدا... كلنا مشاريع شُهدا، هاي أرض الرباط".

ثم ذهب وغسل يديه من الدم بماءٍ أحمر، أخذ الوضوء من عبوةٍ بلاستيكيةٍ على الأرض، ووقف عند زاوية الممرّ، ووسط الركام والدم والصرخات، كبّر: "الله أكبر".

صوته اخترق الهواء، كأنه أذان في قلب الجحيم، ركع وسجد على الأرض التي ما زالت دافئة من دم ابنه، صلّى ركعتين شكرًا لله، والدموع تنهمر من خديه بلا صوت، الناس حوله وقفوا مذهولين، بعضهم بكى، بعضهم رفع يده يدعو، وأنا كنتُ أرتجف خلف الكاميرا، لا أقدر على التنفس.

تساءلتُ في داخلي:

"كيف لقلوبٍ محروقةٍ أن تشكر؟ أيّ إيمانٍ هذا الذي يجعل الإنسان يرى في الموت هدية؟".

في تلك اللحظة، فهمتُ شيئًا ما عن غزة لا يُقال في الأخبار، إنها ليست أرضًا فقط، بل حالة من الإيمان تمشي على قدمين، تسقط وتنهض وتقول: "الحمد لله".

بعد أيامٍ من ذلك المشهد في المستشفى، كنتُ أظن أنني رأيتُ كل أشكال الألم الممكنة، لكنّ غزة دائمًا تعرف كيف تُعيد تعريف الوجع، ذلك اليوم كان القصف أعنف من المعتاد، في منطقةٍ وسط المدينة، الهواء أسود، والغبار يغطي السماء كأنه غيمةٌ من رماد، كنتُ أركض مع طواقم الإسعاف، نبحث عن أحياءٍ بين الشظايا والدخان، الشارع مليء بالأجساد، البيوت مقلوبة على وجوهها، والأرض تفوح منها رائحة البارود واللحم المحترق، كل خطوةٍ كنتُ أخطوها، أشعر معها بأنني أمشي على أنينٍ حيّ لم ينته بعد، وفجأة، رأيتُ مشهدًا لم يُمحَ من قلبي حتى اليوم، حمالة إسعاف يركض بها مسعفان، وفوقها طفلان صغيران، بوجهين شاحبين، وجسدين غارقين بالدم، أصابعهم الصغيرة متشبثة ببعضها، كانت أعينهم مفتوحة، لكنّ الخوف فيها أكبر من العمر كله.

اقتربتُ منهما، والكاميرا ترتجف في يديّ، كنتُ أسمع أنينهما، وفجأة نطق أحدهما، بصوتٍ متقطّعٍ مرتجفٍ، مزيجٍ من الخوف والصدق: "شكراً يا إسعاف، شكراً يا إسعاف، بنحبكم كثير".

حاول الطفل الثاني أنْ يبتسم، لكنّ فمه لم يتحرك إلا نصف ابتسامة، كأنّ

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الألم لم يسمح له أن يكملها، الدم كان يسيل من أيديهم الصغيرة، لكنهما كانا متمسكين ببعضٍ كأنّ الخوف وحده لا يكفي ليفرقهما، صورتُ المشهد دون أن أتنفس، حتى صارت الشاشة باهتة من دموعي، في خلفية التسجيل، كانت صفارات الإسعاف تملأ المكان، وصوت امرأة تصرخ:

"ولادي! وين ولادي".

لكنّ كل الأصوات اختفت أمام تلك الجملة الصغيرة: "بنحبكم كثير".

جملة خرجت من بين الدم والرماد، وغزت العالم، نشرته بعد ساعاتٍ، ووصل المقطع لكل مكان، تُرجمت الجملة إلى عشر لغات، وكتب أحد المذيعين في قناةٍ أجنبية:

"في غزة، حتى الجرحى يشكرون من أنقذهم قبل أن يعرفوا إن كانوا أحياء".

أما أنا، فلم أستطع النوم تلك الليلة، كنتُ أسمع صوت الطفلين كلما أغلقتُ عينيّ، صوتًا ناعمًا مثل نورٍ يتسلل من بين الجراح، كتبتُ في دفتري الصغير:

"في بلادٍ تموت فيها الطفولة، ما زال الأطفال يعرفون كيف يقولون: شكرًا".

رغم كلّ ما حولي، كنتُ أضحك، ليس لأنّني لا أتألم، بل لأنّ الضحك في غزة صار آخر شكلٍ من أشكال المقاومة، كنتُ أقول دائمًا في بثوثي:

"إذا فقدنا الابتسامة، بنفقد آخر سلاح معنا".

أحبني الجميع لأنني دائمًا أبتسم، ليس لأن لديّ الملايين من المتابعين، بل لأنّني كنت أضحك رغم الغبار على وجهي، وأحاول أنْ أزرع ابتسامة في مدينةٍ تقتات من الحزن، كانت ضحكاتي تدخل البيوت قبل أن يدخل صوت القصف، في يومٍ من الأيام، كنتُ داخل إحدى المستشفيات، أتنقّل بين الأقسام، أصوّر وأساعد المسعفين، المكان مليء بالعجائز الذين نزحوا من

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

بيوتهم، كانت رائحة المطهرات تمتزج برائحة الغبار، وصوت الأنين يختلط بضحك الأطفال الذين لم يفهموا الحرب بعد، هناك في زاوية الممر، جلست امرأةٌ كبيرة بالسن،وجهها مغطى بالتجاعيد كأنها خريطة عمرها أطول من البلد، اقتربتُ منها بابتسامتي المعتادة، جلست بجانبها، ومددتُ يدي بلطف أحمل بطاقتها الشخصية التي كانت بحوزتها، قرأت الاسم، ثم التاريخ، ابتسمتُ وقلت مازحًا: "والله يا حجة... مواليد 1944؟"

نظرت إليّ بعينين يغشاهما الغبار والدهر، وحكت بخجل: "آه يا ابني، قديمة أنا".

ضحكت، وقلت لها وأنا أمسك البطاقة: "يعني إنتِ أقدم من إسرائيل يا حجة".

ضحكت هي الثانية، ضحكة صغيرة خفيفة، فيها تعب العمر كلّه ثم قالت بصوتٍ متكسّر: "ولّا أنا متمسكة بالأرض".

نظرتُ إليها وقلت: "بتعرفي شو اسمي يا حجة؟"

رفعت رأسها وقالت: "شو اسمك يا ابني؟"

قلت وأنا أبتسم: "اسمي صالح".

ضحكت، وقالت وهي تهز رأسها برفق:

"إنت اسمك صالح، وإنت كمان صالح".

ابتسمت حينها، وكأنه دعاءٌ مبطّن، كأنها ختمت عليّ بالرضا، ومنذ ذلك اليوم، كلما صورتُ طفلًا، أو وزّعت خبزًا، أسمع صوتها في قلبي يقول: "إنت كمان صالح".

وظلّ هذا الصوت يرافقني، يذكرني أن الصلاح مش اسم، هو اختيار، واختيار صعب في زمنٍ مثل هذا.

كل يومٍ كنت أخرج لأمشي في شوارع غزة كأنّي أمشي داخل ذاكرتي،

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كل زاويةٍ أعرفها، كل شارعٍ كنت أركض فيه وأنا طفلٌ، أصبح اليوم جرحًا مفتوحًا على شكل أطلال.

كنتُ أمشي قرب الجامعة الإسلامية، التي درستُ فيها، وكنتُ أظنّ أنها صلبةٌ كالحلم، لكنها صارت كومةً من الحديد المحترق، ألواحٌ من الإسمنت المكسور تتدلّى منها صور الشهداء، وكأنّ المكان نفسه يعتذر عمّا حصل به، وقفتُ أمام البوابة التي كنتُ أدخل منها مبتسمًا كل صباح، تذكّرتُ أصدقائي، الذين كانوا يملأون الساحة بالصوت والجدال والضحك، وتذكّرتُ المحاضرات التي كنتُ أتهرّب منها لألعب التنس، جميعهم رحلوا، من بقي منهم صار رقمًا في تقريرٍ صحفي أو اسماً على لافتةٍ خشبية.

مشيتُ أكثر، مررتُ بشارعٍ كنت أشتري منه القهوة في الصباح، لكنّ الرائحة هذه المرّة لم تكن بنًّا، بل كانت رمادًا، حتى أصوات الباعة التي كانت تملأ الشوارع، صارت همسًا بعيدًا لا يشبه الحياة.

أحيانًا، كنتُ أسمع في رأسي ضحكاتٍ قديمة، كأنّ المدينة تحاول أن تذكّرني بأننا كنّا نعيش هنا فعلًا، لكنّي كنت أعلم أن غزة ما عادت كما كانت، ولا أنا عدتُ كما كنت.

مرّت الشهور، وفي يومٍ صيفي خانق، كنتُ أراجع بعض الصور القديمة التي التقطتُها في المستشفى، عندما دخل أحد الممرضين بخبرٍ قصيرٍ كسكين.

قال لي بهدوءٍ غريب: "صالح... بتتذكّر الحجة يلي صورتها بالمستشفى؟ الكبيرة يلي من مواليد 1944؟"

رفعتُ رأسي وابتسمتُ: "طبعًا بتذكرها... هاي يلي حكتلي أنا كمان صالح، شو فيها؟"

سكت قليلًا، ثم قال: "استشهدت اليوم، قناص أصابها عند باب بيتها".

تجمّدتُ في مكاني، حتى لم أقدر على البكاء، وكأن الحرب سرقت مني

القدرة على البكاء، جلست على الأرض، أخرجت الكاميرا من حقيبتي، فتحت المقطع مرة أخرى، ونظرت إليها، ضحكتها، الضعيفة والطيبة، صوتها وهي تقول: "إنت اسمك صالح، وإنت كمان صالح".

تسلّل الصوت في الغرفة مثل نسمةٍ من الماضي، كأنها عادت فقط لتودّعني، نظرتُ إلى السماء من شباك المستشفى وقلت بصوتٍ خافت: "ارتاحي يا حجة، إنتِ أقدم من إسرائيل، وأصدق من كل الموجودين بعدها".

ثم أغلقت الكاميرا، وهمست لنفسي: "كل مرة بموت فيها واحد من يلي صورتهم، بحسّ إني بفقد قطعة منّي".

كنتُ دائمًا أبتسم، وكان الناس يظنّون أن ابتسامتي حقيقة، وأنّ في قلبي ضوءًا لا ينطفئ، قالوا إنّي أكثر أبناء غزة تفاؤلًا، لكنّهم لم يدركوا أن الضحك كان درعي الأخير في وجه الانكسار، كنتُ أضحك؛ لأنّ البكاء لم يعد يجدي، ولأنّ الصبر في هذه المدينة يُقاس بعدد المرات التي ابتسمت فيها وأنت مكسور، أحيانًا أعود إلى المقاطع القديمة، أشاهد نفسي وأنا أوزّع الطعام على الجرحى، أو ألعب مع الأطفال في الخيام، وأتساءل بصوتٍ خافت: "أيّ قلبٍ هذا الذي يبتسم وهو يرى الموت في كل زاوية؟"

عائلتي، كانت بيتًا واحدًا يجمعنا في مربع السرايا، نصلي معًا، نضحك معًا، ونحلم معًا، اليوم صار كلّ واحدٍ منهم في جهةٍ من هذا العالم الممزّق، أمي في قطر تتلقى العلاج، وياسمين وإسراء بجانبها هناك، ترافقانها وتطمئنانها، ميساء في الجنوب بعد زواجها، وعلي آخر العنقود، صار رجلاً صغيرًا قبل أوانه، أبي في مكانٍ لا أعرفه تمامًا، بين بيوتٍ مهدّمة وسماءٍ تائهة.

أما ناجي، سندي وأخي الأكبر وإمامي الذي كنت أقتدي بصوته في الفجر، فما زال أسيرًا في سجونٍ لا تصلها الشمس، أراه في أحلامي قائمًا يصلي، وركبته على الأرض، ووجهه مغمورٌ بالنور، يقول لي: "اثبت يا صالح،

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

فما بعد الليل إلا فجرٌ يليق بالمؤمنين".

لكنّي أحيانًا لا أثبت، أحيانًا أسقط في وحدتي سقوطًا صامتًا، وأكتم صراخي لئلّا يسمعه أحد، حين كنتُ أفتح الكاميرا لأصوّر، كنت أرتّب ملامحي بعناية، أمسح وجهي من الغبار، وأرسم ابتسامةً يعرفها الناس أكثر مما يعرفون اسمي.

أقول لهم بصوتٍ مطمئن: "صباح الخير من غزة، ما زال في الحياة متسعٌ للأمل".

لكنّ ما إن تنتهي اللقطة، حتى يسقط التعب على وجهي، وأضع الكاميرا إلى جانبي كمن يضع سيفه بعد معركة، كنتُ أسمع دقات قلبي تختلط بأصوات القصف البعيد، وأشعر أنّ المدينة تتنفس معي في كلّ زفرة، الناس كانوا يرون ضحكتي، لكنّهم لم يسمعوا وجعي، كانوا يرون الأمل، لكنّهم لم يروا اليد التي كانت ترتجف خلف العدسة.

أشتاق إلى بيتنا، إلى دفء الجدران التي جمعتنا، إلى صوت أمي وهي تناديني من المطبخ، إلى ناجي وهو يوقظني للفجر، إلى ضحكة ياسمين التي كانت تُعيد للحياة معناها، وإلى طفولةٍ ضاعت بين الركام والرماد، كلّ شيءٍ بداخلي يحنّ للأيام التي كنّا فيها معًا، حين كان الحبّ بسيطًا، والحياة ممكنة.

وأحيانًا، حين يشتدّ عليّ الليل، أهمس لنفسي: "ربّما أنا آخر من بقي من العائلة على قيد الحياة، وربّما كلّهم هناك، في الجهة الأخرى من الرحمة، ينتظرون أن أرتاح".

لكنّي أعود فأذكّر نفسي، ما دمتُ أتنفس، فثمة شهادة لم تُكتب بعد، وثمة ضوء عليّ أن أحمله، حتى لو انطفأ كلّ شيءٍ من حولي، ابتسامتي للعالم، ودمعتي لربّي، وفي المسافة بينهما كنت أعيش، ليس لأنّ الحياة سهلة، بل لأنّ الإيمان حين يشتدّ، يجعل حتى الوجع طريقًا إلى الله.

لم أكن بطلاً، ولم أرد أن أكون كذلك، كلّ ما أردته أن أكون صوتًا للناس

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الذين لا صوت لهم لكنّ الحرب تُعلّمك أنّ النوايا وحدها لا تكفي، وأنّ الخير في زمن الفوضى قد يُفسَّر خطأً، في تلك الأيام، كانت غزة تنزف من كلّ الجهات، البيوت تهوي، والمستشفيات تغصّ بالجرحى، والناس تبحث عن لقمةٍ أو دواءٍ أو مأوى، والعالم ما زال يتفرّج من وراء الشاشات.

في شهر آذار من عام 2024، انطلقت حملةُ تبرّعاتٍ ضخمة من خارج فلسطين، جمعت ما يقارب عشرة ملايين دولار لدعم المستشفيات والمنكوبين، كنتُ حينها الإعلاميّ الذي يغطّي الحملة، أنقل الأخبار، أشارك المقاطع، أُجري المقابلات، أتحدث عن حاجة الناس، عن البرد، عن الجوع، عن صمود الأطفال في الخيام، لم تكن لي أيّ علاقةٍ بالأموال، ولا كنتُ مسؤولًا عن تحويلٍ أو إدارةٍ أو حساب واحد، كنتُ فقط أقدّم وجهي وصوتي لأجلهم، أريد أن أذكّر العالم أن غزة ما زالت على قيد الألم، لكنّ الحرب لا تكتفي بالقنابل، فقد تُطلق عليك سهمًا آخر، اسمه الشكّ.

انتشرت الشائعات كالنار في هشيم المدينة الجائعة، قالوا إن صالح جمع الأموال، وإنه استغلّ الناس، قالوا أشياء كثيرة، بعضها موجعٌ وبعضها مضحك، لكن أكثرها كان يطعن القلب، أتذكّر تلك الليلة جيّدًا. كنتُ جالسًا وحدي في خيمتي، الريح تعصف بالقماش فوق رأسي، وأنظر إلى هاتفي المليء باتهاماتٍ لا تشبهني، ضحكتُ أوّلًا، ظننتها موجةً وستنتهي، لكن حين قرأت التعليقات من بعض الذين أحبّوني، شعرتُ بشيءٍ ثقيلٍ يسقط في صدري.

قلت لنفسي: "يا الله، كم هو صعبٌ أن يُساء الظنّ بمن أراد أن يُخفّف عن الناس".

ومنذ تلك الليلة، قررتُ أن أعمل بصمت، صرتُ أوزّع المساعدات دون عدسات، أزور المستشفيات دون تصوير، وأترك الخير يمرّ كالماء، بلا ضجيجٍ ولا أسماء، ومع كلّ خطوةٍ كنتُ أقطعها بين الركام، كنتُ أزداد يقينًا أن الله وحده يرى، وذلك وحده كان يكفيني.

قبل أن يُقسّم الجسد الغزّي إلى شمالٍ وجنوب، وقبل أن تُغلق الطرق كأنها أفواه المدن، كنتُ قد تعرّفت على أنس الشريف، كان ذلك في الأسابيع التي سبقت فصل القطاع، حين ما تزال الممرّات بين المدن مفتوحةً على خوفٍ لا يُقال، وكان الصحفيّون يلتقون في المستشفيات وفي مواقع القصف كما يلتقي الناجون في المنفى، أنس لم يكن غريبًا عني، كنت أراه مرارًا في المؤتمرات الصغيرة، في الميدان، في محيط مستشفى الشفاء، يحمل كاميرته الصغيرة ويقف في وجه الموت بابتسامةٍ صادقة، كان يشبهني حدّ التطابق في كل شيء: في خوفه المكبوت، في غضبه الصامت، وفي إيمانه العجيب أن الصورة قادرةٌ على هزيمة النسيان.

حين التقينا أول مرة، صافحني وقال: "أخيرًا التقينا يا صالح، كنتُ أتابعك قبل ما يصير اسمك بكل مكان".

ابتسمت وقلت له: "كلنا صرنا أسماء يا أنس ".

منذ تلك اللحظة، صرنا رفيقين لا يَفترقان، نخرج معًا للتغطيات، نتقاسم الخبز القليل في ساعات الجوع الطويلة، ونتبادل الكاميرات حين تتعطّل إحداهما، كنا مهدّدين بالاسم، القوائم المسربة التي نشرها الاحتلال كانت تحمل اسمينا، والتحذيرات تأتينا من كلّ مكان: "خففوا الظهور... أنتم تحت المراقبة".

لكننا لم نعرف الخوف كما يعرفه الآخرون، كان بيننا اتفاقٌ غير مكتوب: أن نموت واقفين، وليس مختبئين.

قال لي ذات مساءٍ ونحن نغادر مستشفى الأقصى بعد يومٍ من الجحيم: "إذا متت قبلك، صوّرني كويس".

قلت له وأنا أمدّ يدي على كتفه: "وإذا متّ أنا، لا تبكي... انشر الفيديو وكون فخور".

وحين بدأ الاحتلال يفصل الشمال عن الجنوب، تفرّق الناس كأنهم أوراقٌ تُركت للريح، لم نعد نستطيع اللقاء، ولا حتى التواصل إلا نادرًا، وظلّ في

الشمال بين الدمار، وأنا نُقلت إلى الجنوب مع قوافل النازحين، كنا نرسل لبعضنا رسائل صوتية قصيرة، نطمئنّ أن الآخر ما زال حيًا، في آخر رسالةٍ وصلتني منه قال: "صالح، إذا ما التقينا بعد الحرب، احكي عني زي ما كنت تحكي عن غزة، أنا مش مهم أعيش، المهم إنت ما توقف".

كنتُ أشعر أن الحرب لا تكتفي بأن تقتل الناس، بل تقتل اللقاء أيضًا، حتى بين الأحياء. لم تعد غزة كما كانت في الشهور الأولى من الحرب، صار كلّ يومٍ فيها يشبه القيامة الصغيرة، السماء التي كانت تُمطر نارًا، بدأت تمطر صمتًا أثقل من الرصاص، وصار الجوع سلاحًا جديدًا يفتك بالناس ببطءٍ لا يُرى في الشاشات، الأسواق أغلقت، والمحال الفارغة تحوّلت إلى هياكل من الغبار، الأسعار ارتفعت إلى حدودٍ لا يُصدّقها عقل، كأن لقمة الخبز صارت عملةً نادرة، وكأن الماء صار ذهبًا يُشترى بالدعاء لا بالنقود، كان الناس يقفون في طوابير طويلةٍ أمام المخابز القليلة الباقية، وجوههم شاحبة، أجسادهم منهكة، وكلّ واحدٍ فيهم يحمل في عينيه سؤالًا واحدًا:

"هل سنأكل اليوم؟"

رأيتُ أمًّا تحمل طفلها المريض وتقول للبائع: "خذ خاتمي، بس أعطيني رغيفين".

ورجلًا كهلاً يضع على الميزان ما تبقّى من نقودٍ ورقيةٍ ممزقةٍ ويقول: "احسبها صدقة عني، بس لا تردّني".

لم يكن في غزة حينها طعامٌ كافٍ للجميع، ولا دواءٌ، ولا كهرباء، ولا ما يُسمّى حياة، حتى صوت الأذان صار يُرفع على ضوء الشموع، والناس تُصلّي في الظلمة خوفًا من القصف وخوفًا من الجوع، كنتُ أمشي بين الأزقّة وأنا أرى الموت في وجوه الأحياء، لم تعد الجثث وحدها مرعبة، بل العيون التي ما زالت مفتوحة تبحث عن شيءٍ من الأمل، كلّ مكانٍ أمرّ به كان يحمل رائحةً واحدة، مزيج الخبز المحترق والجثث القديمة، رأيتُ طفلًا يجلس على الرصيف، يمسك بعلبة تونة فارغة كأنها كنز، يطرقها

بحجرٍ صغير ويهمس: "يمكن يطلع فيها شوية أكل".

حينها أدركتُ أن الحرب تغيّر شكل الكرامة، فمن لا يملك ما يأكله، يبدأ بأكل صبره حتى آخر لقمةٍ في القلب، المال لم يعد له قيمة، الناس تبيع أثاثها مقابل كيس طحينٍ أو زجاجة زيت، والجميع يحسب الأيام بعدد الوجبات لا بعدد الساعات، من كان غنيًا بالأمس، صار اليوم فقيرًا بالنجاة، ومن كان يملك بيتًا، صار يسكن خيمةً من النسيان، كنتُ أمشي بالكاميرا، لكنّي هذه المرة لم أصوّر شيئًا، الوجع تجاوز حدود العدسة، كيف يمكن أن تصوّر الجوع؟ كيف تلتقط لقطةً للفراغ؟

في تلك الأيام، أحسست أن غزة كلها تتنفس بصعوبة، الهواء ثقيل، الليل أطول، والناس تتعلّق بالدعاء كمن يتمسّك بحبلٍ بين السماء والهاوية، كنتُ أنظر حولي وأقول في نفسي:

"نحن لا نعيش الحرب فقط، نحن نعيش نهايتها البطيئة".

في منتصف عام 2024، تجاوز عدد متابعيّ على "الإنستغرام" الأربعة ملايين إنسان، أربعة ملايين عينٍ تراقب ما أرى، وأربعة ملايين قلبٍ ينتظر أن أقول شيئًا يُعيد له الإيمان بالحياة، كنتُ أستيقظ كلّ صباحٍ على مئات الرسائل، من الداخل والخارج، من غرباء يبكون على مدينتي، ومن وجوهٍ أعرفها تبتسم لي كما لو كنت الأمل الأخير.

لكن خلف تلك الأرقام الكبيرة، كان هناك وجعٌ صغيرٌ لا يعرفه أحد، بدأت بعض الوجوه تتقرّب منّي ليس بدافع المحبة، بل بدافع "الترند"، يبتسمون معي أمام الكاميرا، يتظاهرون بالصداقة، ينشرون صوري وكأنهم كانوا معي في الميدان، ثم يكتبون:"مع صديقي البطل صالح".

كنتُ أرى ذلك وأصمت، لم أكن أريد فضح أحد، ولا كسر الصورة التي ظنّ الناس أنّها بطولية، لكنّ داخلي كان يتمزّق، كنتُ أقول لنفسي: "يا الله، حتى الصحبة صارت تجارة".

كثيرون ظنّوا أن الشهرة غيّرتني، لكنّ الحقيقة أنها أرهقتني، كنتُ أرى

اسمي في كل مكان، وأشعر أنه لم يعد لي، حتى صوتي حين أتكلم في المقاطع، لم يعد يشبهني كما كان.

أذكر مرّة أن شابًا أوقفني في الطريق وقال: "صالح، نزلت معك فيديو من أسبوع، صار عليه آلاف المشاهدات! شكراً إلك".

ابتسمت له مجاملة، لكنّ قلبي كان يهمس: "وأنا؟ صرتُ مجرد فيديو بستخدموني لتلمعوا على ظهري؟".

رغم كلّ هذا، لم أغيّر طبعي، ظللتُ أتعامل مع الجميع بصدقٍ وبساطة، أسلّم على الأطفال قبل العجزة، أضحك مع الناس في الشوارع، وأتذكّر أسماء الأطفال الذين قابلتهم في المستشفيات.

ومهما ازدادت الأرقام، ظلّ قلبي كما هو، قلبَ الغزّي الذي وُلد ليخدم الناس ليس ليُصفّق له أحد، كنتُ أتعجبُ من نفسي أحيانًا، كيف أستطيع أن أضحك رغم كل ما رأيت، وكيف ما زلت أؤمن أنّ الخير لا يموت، حتى لو تلطّخ بالشهرة أو أُسيءَ فهمه، ربما لأنّني كنتُ أؤمن بشيءٍ بسيطٍ جدًا: أنّ الصدق لا يحتاج إلى شاهد، وأنّ النية الطيّبة، ولو ظُنّ بها السوء، تبقى عند الله نقيّة كما خُلقت.

وفي إحدى الليالي الثقيلة، حين خفّ القصف قليلًا وساد الهدوء الذي لا يُطمئن، قرّرتُ أن أفتح بثًا مباشرًا على منصة "التيك توك"، كنتُ أريد أن أتحدّث مع الناس، ليس كمراسلٍ ولا كناشطٍ ولا كصوتٍ للحرب، بل كإنسانٍ أنهكته الأيام، يبحث عن دفءٍ مؤقتٍ في كلمات الغرباء، كانت الوجوه تتزاحم على الشاشة، القلوب تتطاير كشراراتٍ صغيرةٍ من الضوء، والتعليقات تنهال: "صالح، احكيلنا شو نفسك تعمل بعد الحرب؟".

توقفتُ لحظة، ابتسمتُ، ثم وضعتُ الهاتف على الطاولة أمامي، وأغمضتُ عيني كمن يعود إلى حلمٍ قديم، قلتُ بصوتٍ خافتٍ فيه ضحكةٌ خجولة: "أوّل إشي... بدي أشوف أمي".

ضحكتُ، لكنّ ملامحي خانتني، كانت الضحكة قصيرة، تحمل في آخرها

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

رعشة شوقٍ لا تُخفى، تابعتُ وأنا أحدّق في الكاميرا كأنها نافذةٌ إلى بيتنا القديم: "والله، بدي أشوفها وأحضنها، بتخيل كيف رح أروحلها بدون ما تعرف وتشوفني وتتفاجأ".

ثم قلتُ وأنا أتنفس بعمقٍ كمن يحاول أن يمنع دمعةً من السقوط: "وبعدها، بدي أروح أعمل عمرة، نفسي أطوف حول الكعبة".

ابتسمتُ مرةً أخرى، لكن هذه المرة كان في عينيّ حنينُ مَنْ فقد أمه، وخشوعُ مَنْ عرف أن النجاة لا تأتي مجانًا، ثم رفعتُ بصري للشاشة وقلتُ بنبرةٍ أخفّ، كأنّي أريد أن أختم الحلم بالضحك: "وبعدين نفسي ألفّ العالم، أحكي بالمؤتمرات، وأحكي للعالم كلّه شو يعني تكون من غزة، مش عن الحرب، عن الحياة يلي جوّا الحرب".

ضحك الناس في التعليقات، كتبوا له عبارات تشجيعٍ وأدعية، لكنّ الذين يعرفون صالح عن قرب، كانوا يدركون أنّ خلف ضحكته تلك قلبًا يبكي شوقًا لأمه، ولسلامٍ لم يعرفه يومًا، ذلك البثّ القصير انتشر كالنار في الهشيم، لم يكن فيه قصفٌ ولا صراخٌ ولا مشاهد موت، بل كان فيه إنسانٌ بسيط، يحلم بأشياءٍ صغيرةٍ جدًا، زيارة أم، وعمرة، وسفر، أحلامٌ كانت تبدو تافهةً في العالم، لكنها في غزة، كانت تساوي حياةً كاملة.

في شهر أكتوبر عام 2024، كانت الحرب تزداد ضراوةً، والمدينة تختنق تحت ركامها، لكنّ قلبي كان يبحث عن نافذةٍ صغيرةٍ للضوء، وسط هذا الجنون، قرّرت أن أتقدّم لخطبة فتاةٍ رأيتها مرةً واحدة في إحدى المبادرات التطوعية، كانت مختلفة عن كلّ ما رأيت في الحرب، في صوتها سكينة، وفي عينيها عزيمة تشبه جذور الزيتون التي لا تموت، كانت تساعد الأطفال وتوزّع الطعام على العائلات النازحة، وحين رأيتها، شعرت أنّ شيئًا في داخلي تذكّر الحياة، لم أقترب منها كثيرًا، ولم يكن بيننا علاقة أو رسائل أو لقاءات، فأنا لم أعرف الحبّ كما يعرفه الناس، كنت فقط أرى فيها فكرةً تشبه الحلال تشبه الأمان.

اخبرت أبي حينها: "يابا بدي أطلب بنت بالحلال".

نظر إليّ مطولًا، صامتًا كأنه يفتش عن المنطق في وجهي، ثم قال: "الزمن هذا للحرب يا صالح، مش للزواج".

ابتسمتُ وقلت: "حتى في الحرب، ربنا برضى بالحلال يابا".

في اليوم التالي، قرر أبي أن يتحدث مع والدتها، وأنا كنتُ أنتظر، قلبي يخفق كما لو كنتُ أنتظر هدنةً لا موعد لها، اتصل بي أبي بعد وقتٍ طويل، وفي صوتهِ شيءٌ لم أستطع تفسيره.

قال لي بصوتٍ خافتٍ لا يخلو من حزن: "أمّها رفضت يا صالح".

صمتُّ لحظة، ثم سألته: "ليش؟"

قال: "بتخاف عليك، بتخاف على بنتها منك، بتقول إنت مطلوب ومهدد، والحرب مش ناقصها وجع جديد".

لم أغضب، ولم أجادل أحدًا، شعرت فقط بأنّ الحرب انتصرت من جديد، هذه المرة، على قلبي، مشيتُ بعدها طويلًا في الشارع، والمدينة من حولي مغطاةٌ بالدخان، كنتُ أشعر أنّني فقدت شيئًا لم أملكه أصلًا، لكنّي كنتُ مطمئنًا، لأنّني حتى في قلب الجحيم، ما زلت أصرّ على أن أختار الطريق النظيف.

وواسيت نفسي وقلبي وقلت: "بس تخلص الحرب والله لأروح أخطبها، أنا ما بدي غيرها".

منذ ذلك اليوم، أدركتُ أن كلّ ما أحبّه في هذه الحياة إمّا بعيدٌ عني، أو محكومٌ عليه بالغياب، لكنّني كنتُ مؤمنًا بشيءٍ واحد، أنّ الله لا يخذل من كانت نيّته صادقة، ورغم الرفض، ورغم الخوف، ورغم أن اسمي صار على قوائم المطلوبين، لم أتوقّف، كنتُ أستيقظ كلّ صباحٍ وأخرج بالكاميرا، كأنّني أذهب إلى موعدٍ مع قدري، الناس كانت تحاول ثنيي عن التصوير، حتى أبي قال لي مرّةً بصوتٍ غاضبٍ يخفي تحته الرعب: "يا صالح، خلص

يابا بكفي!" .

ابتسمت له بهدوءٍ وقلت: "ما بقدر يابا ما بقدر".

كانت التهديدات تصلني من كل اتجاه، أرقامٌ مجهولة، رسائل قصيرة، وأحيانًا طائراتٌ مُسيّرة تحوم فوقي كأنها تبحث عني بالاسم. كنتُ أقرأ الرسالة وأضحك، ثم أكتب في دفتري الصغير: "من يخاف أن يُقتل، لن يَحيا أبدًا".

وبينما كانت الحرب تزداد ضراوة، كنتُ أزداد عنادًا، أنشر كلَّ يومٍ مقطعًا جديدًا، ليس عن الموت فقط، بل عن الحياة التي ترفض أن تموت، عن الأطفال الذين يضحكون رغم الجوع، عن الأمهات اللواتي يخبزن الحزن ليطعمن أبناءهنّ الأمل، وعن الرجال الذين يحملون جراحهم كأوسمةٍ لا تُرى، وبرغم التعب، ورغم الشكّ والتهديد، ظللتُ أعمل، كأنّني أريد أن أسبق الموت بخطوةٍ واحدة، أوثّق ما يحدث قبل أن يُمحى.

بينما أنا في الجنوب خفَّ صوتُ القصف قليلًا، هدأت السماء، لكنّ الأرض ظلّت ترتجف من الذاكرة، جلستُ داخل السيارة التي صارت مأواي المؤقّت، وبيدي كاميرا صغيرة، وهاتفي، وبعض الحنين، كانت الكهرباء مقطوعة منذ أيام، لكنّ الفكرة لم تحتمل الانتظار، قلتُ لنفسي: "إذا صمتَ الصوت، صمتَ الوجع أيضًا، وغزة لا تُشفى بالصمت".

أردتُ أن أقول شيئًا يشبه الحقيقة، فولدت أغنية، أسميتها "مات النداء". كتبتُ كلماتها وأنا أنظر من نافذة السيارة إلى الشوارع المهدّمة، إلى الأطفال الذين يلعبون وسط الركام كأنّهم لا يعرفون معنى الخوف، لم يكن معي سوى الهاتف، فسجّلتها بداخله، بين صوت الريح وانقطاع النفس ثم خرجتُ وصوّرتها في أحياء الجنوب، حيث البيوت مائلة كالأجساد المتعبة، وحيث السماء تبدو أقرب من أي وقتٍ مضى، كنتُ أمشي بين الحجارة وأغنّي، وصوتي يختلط بصوت الريح والبحر والأنين.

وقلت في كلمات الأغنية:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

يا سامعين الصوت

يا شايفين الموت

غزة بتناديكم والرد منكم سكوت

غزة الوجع فيها اجتمع

صار الصبر مروي دمع

نادينا يا كل الأمم

مات الندا وما حد سمع

نادينا يا كل الأمم

مات الندا وما حد سمع

مات الندا وما حد سمع

ما حد سمع

مرت سنة واحنا، لسه متل ما احنا

مرت سنة واحنا، لسه متل ما احنا

لا انتو حنيتو ولا زالت المِحنة

لا انتو حنيتو ولا زالت المِحنة

وحين انتهيت، شعرتُ أنّ شيئًا في داخلي تحرّر، كأنّ الكلمات نزفت بدلاً من عينيّ لم أكن أغنّي طلبًا للشهرة، بل لأجل الذين لم يبقَ من أصواتهم سوى صدى في الهواء، نشرتُ الأغنية، وبعد ساعاتٍ امتلأت الشاشات بها، صارت تُسمع في البيوت والملاجئ والمستشفيات، بين أصوات المولدات والأنين.

كتب لي أحدهم: "صوتك صار علَمًا يرفرف فوق الدمار".

لم أجبن كنتُ أجلس في السيارة نفسها، أحدّق في ليلٍ ممزّقٍ بنيرانٍ بعيدة لم يتغيّر شيء، بقيت الحرب كما هي، وظللتُ على هذا الحال شهورًا طويلة، أصوّر وأنشر، ثم تُغلق حساباتي واحدًا تلو الآخر، كنتُ أبدأ من جديد في كل مرة، باسمٍ مختلف، وصورةٍ مختلفة، لكنّ الصوت كان واحدًا، وصوتي كان يسبقني دائمًا، صار العالم يعرفني دون أن يعرف أين أختبئ، وصار الخوف عادةً وليس شعورًا، وكانت الأخبار تتحدّث عن هدنةٍ قريبة، الناس تمشي في الشوارع بنصف أملٍ ونصف خوف، يقولون: "يمكن هالمرة تكون جدًا!"

لكنّ القصف لم يتوقّف، والطائرات ما زالت تسرق النوم من عيون المدينة، كلّ يومٍ نودّع عشرات الشهداء، وكلّ ليلٍ نحفر قبورًا جديدةً في ساحات المدارس، رغم ذلك، كان في الجوّ شيئٌ يشبه الانتظار، انتظارٌ مشوبٌ بالشك، كأنّ الناس لا تصدّق أنّ الصمت يمكن أن يعود، في أحد الأيام، رآني أحد الشباب جالسًا على شاطئ غزة، كنتُ وحدي، بلا كاميرا، بلا هاتفٍ، بلا صوت، البحر أمامي يضرب الرمل، والسماء رمادية لا تَعِد بشيء، أخرج هاتفه وصوّرني من بعيد، ثم اقترب وقال لي: "صالح! شو شعورك وإنت بدون الإنستغرام".

التفتُّ إليه وقلت بابتسامةٍ هادئةٍ تحمل عنادًا متعبًا: "أنا ما مليت، كل مرة بسكروا حساباتي، برجع أفتح من جديد، مش رح أروح، ورح أضل شوكة بحلقهم".

كان صوتي مزيجًا من الإصرار والحزن، كأنني لا أخاطب الكاميرا بل أخاطب البحر، أطلب منه أن يبقى شاهدًا حين يختفي كلّ الشهود.

بدأت غزة تتهيّأ لما سمّوه هدنةً مؤقتة، أعلنوا عنها في التاسع عشر من كانون الثاني / يناير 2025. قالوا: "وقفٌ لإطلاق النار... لفترة".

لكنّ أحدًا لم يصدقها تمامًا، فالدم لم يجفّ بعد، والصوت الذي ينام في السماء يعود كلّ ليلةٍ ليذكّرنا أن الحرب لا تعرف النوم، خرج الناس إلى

الشوارع على استحياءٍ، ينظرون حولهم كمن لا يصدق أن الليل بلا قصف، والأطفال ركضوا نحو البحر كأنهم نسوا كيف يبدو الفرح، أما أنا، فأفكر الآن بكل من تركتهم هناك، في الشمال، فايز، أنس، وسارة طفلة الحبيب ناجي.

وعندما دخلت الهدنة حيّز التنفيذ، سمحوا للناس أخيرًا بالعودة إلى الشمال، انتشر الخبر كالنور في ليلٍ ثقيل، وتحرّكت غزة كلّها في موكبٍ واحدٍ من الشوق، آلاف الناس يسيرون على الطرقات المهدّمة، يحملون ما تبقّى من بيوتهم على أكتافهم، وأعينهم معلّقة بجهةٍ اسمها "البيت".

كنتُ أمشي بينهم، والأرض تحت قدمي ترتجف من خطوات العائدين، الريح تحمل رائحة الغبار، لكنّ فيها شيئًا من رائحة الأمهات والذكريات، كأنّ المدينة تتنفّس بعد غيبوبةٍ طويلة، نظرتُ حولي إلى الوجوه، كلّ واحدٍ يبحث عن وجهٍ يعرفه بين الجموع، أطفالٌ يركضون حفاة، نساءٌ يبتسمن رغم الدموع، ورجالٌ يعودون إلى ما لم يبقَ منه شيء، وفجأة رأيتُ علمًا فلسطينيًا ملوّحًا في الهواء، يحمله شابٌ نحيلٌ على ظهره، يقف فوق الردم، بخطواتٍ ثابتةٍ رغم التعب، رفرفتِ الألوان أمامي كأنها نداءٌ قديم، شيءٌ في داخلي انتفض دون تفكير، صرختُ بأعلى صوتي: "ولك فاااايز".

التفت الشابّ بسرعة، وعيناه، برغم الغبار، كان فيهما نفس البريق القديم، ركض إليّ كالطفلِ الذي يركض لأمه، فتح ذراعيه كمن وجد نصفه الآخر بعد حربٍ من النسيان، وركضنا نحو بعضنا وسط الحشود، تصادمت أذرعنا بعناقٍ كاد يكسِر الضلوع، لم نقل شيئًا، كأنّ الكلام لا يليق بمثل هذا اللقاء، اكتفينا بالبكاء، ثم بالضحك، ثم بالصمت الطويل الذي يشبه الحمد.

قال لي فايز بعد أن هدأ قليلًا: "كنت عارف إنك رح ترجع، كنت كل يوم أوقف هون وأستناك".

ضحكتُ وأنا أمسح عرقي وغبار الطريق: "وقبلته على رأسه".

ضحك، تلك الضحكة القديمة التي أعرفها منذ طفولتنا، تقدّمنا معًا بين الحشود، نمشي بخطواتٍ ثقيلةٍ نحو المدينة التي لم تَعُد كما كانت، البيوت

مهدّمة، والشوارع بلا أسماء، لكنّنا كنا نعرفها من رائحة ترابها.

تابعتُ سيري مع فايز في شارع الرشيد، الطريق الذي كان يومًا ممزّقًا بالنار، وصار اليوم مزدحمًا بالعائدين يحملون رماد بيوتهم كغنائم نجاة، وصلنا إلى دوّار النابلسي، حيث البحر على يميننا، والمدينة تنهض ببطءٍ من بين الرّكام، كانت أصوات الناس تختلط بصوت الأمواج، ضحكاتٌ ودموعٌ ونداءاتٌ تتعانق كأنّ غزة كلّها تتنفّس للمرة الأولى بعد سجنٍ طويل، وفجأة، ارتفع صوتٌ مألوف من بين الجموع، صوتٌ أعرفه ولو خرج من بين ألفٍ من الأفواه، رفعتُ رأسي فرأيته كان أنس الشريف، كان واقفًا فوق باصٍ صغير، يرفع هاتفه، يصوّر الناس، ويبتسم بتلك الابتسامة التي تشبه ضوء الصباح بعد ليلٍ طويل، لم أصدق عينيّ، كأنّني أرى شبحًا من ذاكرةٍ مؤجلةٍ للحياة، صرختُ دون وعي: "أنس".

التفت بسرعة، حدّق بي للحظةٍ قصيرةٍ، ثم قفز من على الباص بخفةٍ لم أفهم من أين جاءته، وركض نحوي وسط الزحام، التقينا في منتصف الشارع، العالم كله توقف من حولنا، الناس نظروا إلينا بدهشة، لكننا لم نرَ أحدًا، عانقني بقوة، كأنّه يحاول أن يتأكد أنني لست حلماً، قال بصوتٍ مرتجفٍ من شدّة الفرح: "يا الله يا صالح! حيّ أنت! والله ظنيتك استشهدت!"

أجبته وأنا أضحك والدموع تملأ عيني: "كنت رح أقول نفس الشي عنك يا أنس، بس يمكن الله خلّانا نلتقي لنكمّل القصة سوا".

ارتفعت أصوات الناس من حولنا، بعضهم يصفّق، وبعضهم يبكي، كأنّهم شاهدوا مشهدًا من فيلمٍ يعرفون نهايته.

وقفنا بعدها قليلًا في وسط الطريق، رفع أنس الكاميرا وقال ضاحكًا: "هي الصورة يلي كنت مستنيها من سنة".

ذلك اليوم في شارع الرشيد، لم يكن مجرّد لقاء بين أصدقاءٍ فرقهم الحصار، بل كان لحظةً نادرةً تذكّرنا أنّ الحياة، مهما جُرحت، تظلّ تجد

طريقها بين الركام، تمامًا كما وجدنا نحن بعضنا، في زمنٍ لا يجمع فيه أحدٌ أحدًا.

بعد لقائي بأنس وفايز في شارع الرشيد، لم أستطع أن أعود إلى البيت مباشرة، كان في قلبي نداءٌ قديم لم يُجب بعد، وجهٌ واحد ظلّ يرافقني في كلّ لحظةٍ من الغياب، وجه أخي ناجي، الغائب الذي ترك خلفه فراغًا لا يُملأ بالدموع ولا بالكلمات.

قررتُ أن أذهب إلى شارع الجلاء، إلى بيت أهل زوجته، حيث تقيم هي وبناته الصغيرات منذ أسر ناجي. كنتُ أعرف أنهنّ بحاجةٍ إلى من يذكّرهنّ أن أباهم ما زال حيًا في قلوبنا، وبأن الغياب لا يعني النهاية، حين وصلتُ إلى البيت، خرجت البنات ركضًا نحوي قبل أن أنادي عليهنّ، كانت سارة، الكبرى، أول من احتضنني، صوتها الصغير يختنق وهي تقول: "عمّو صالح، بابا رح يرجع صح؟".

لم أستطع الردّ، ابتسمت فقط وربّتّ على شعرها، وقلت: "أكيد، بابا رح يرجع، يمكن الطريق طويلة شوي، بس رح يرجع".

منذ ذلك اليوم، صرتُ أذهب إليهنّ كلّ صباحٍ تقريبًا، أطرق الباب بابتسامتي المعتادة، تحمل لي الصغيرة رندة دفترها الملوّن، وتقول بفخرٍ طفولي: "شفت؟ رسمتك إنت وبابا وإنتوا بتضحكوا".

كنتُ أجلس معهنّ على الأرض، أحكي لهنّ عن البحر، وعن أيامنا القديمة، وأحيانًا نغنّي معًا تلك الأناشيد البسيطة التي كنّا نسمعها في الطفولة، وفي الأيام التي يكون فيها الطقس دافئًا، كنتُ آخذهنّ إلى شاطئ غزة.

أحمل لهنّ بعض الحلوى، ونرسم على الرمل أسماءنا وأسماء من نحبّ. كانت سارة تكتب بخطٍّ صغيرٍ مرتجف: "بابا ناجي".

ثم تنظر إليّ وتقول: "شفت يا عمّو؟ البحر ما بمسح اسم بابا".

كنتُ أضحك، ثم أشيح بوجهي عنها لأخفي دمعةً خائنة، كانت الطفلة

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

تفهم أكثر مما يجب، وربما لهذا تعلّقت بي أكثر من أيّ أحدٍ آخر، كنتُ أحاول أن أملأ غياب ناجي كما يُملأ الجرح بالضماد، أشتري لهنّ ما أستطيع، ألعب معهنّ، أرافقهنّ إلى السوق أحيانًا، وأصوّر لهنّ مقاطع صغيرة أرسلها إلى أمّهنّ كي تضحك من بعيد، كلّ يومٍ كنتُ أعود إلى البيت منهكًا، لكنّ قلبي أخفّ وزنًا.

كنتُ أشعر أنّي أستعيد جزءًا من ناجي في ضحكاتهنّ، وأنّ حنيني إليه صار له وجوهٌ صغيرةٌ تناديني كلّ صباحٍ: "عمّو صالح".

كانت سارة بالذات أقربهنّ إليّ، تشبه أباها في الملامح والهدوء، وحين تمسك بيدي، أشعر كأنّ ناجي نفسه يعود معي من الغياب، كنتُ أقول لنفسي دائمًا وأنا أنظر إليهنّ: "إذا كانت الحرب أخذت أخي، فلن تأخذ أثره".

وهكذا، ظلّ بيت زوجة ناجي ملاذي في الشمال، أزوره كلّما ضاق قلبي، فأجد في ضحكات البنات شيئًا يشبه الطمأنينة، وفي عيون سارة، وجه أخي الذي لم يفارقني يومًا.

أخذت أجول في جميع أنحاء الشمال، الشوارع التي كنتُ أعرفها صارت غريبةً عني، كأنّها ترفض أن تذكر اسمي، كنتُ أمشي بين الركام كأنّني أفتّش عن أثرٍ لصوتٍ أو ظلٍّ لأحدٍ كان هنا، كلّ شيءٍ تغيّر، البيوت التي كانت تضجّ بالحياة صارت قبورًا مفتوحة، والنوافذ التي كانت تضحك للريح صارت فارغة كالأفواه المذعورة.

سرتُ نحو مستشفى الشفاء، المكان الذي كان يومًا رمزًا للنجاة صار كومةَ أنقاضٍ وذكريات، المدخل الذي كنتُ أدخله بالعَجَلة لأصوّر المصابين، أصبح الآن طريقًا من الغبار والدم، رأيتُ عربات الإسعاف محروقة، وسمعتُ صدى الأصوات القديمة التي كنتُ أعرفها؛ أسماء الأطباء والممرّضين، الضحكات التي كانت تملأ الممرّات، كلّها تحوّلت إلى صمتٍ ثقيلٍ يملأ القلب قبل الأذن، مشيتُ داخل الساحة، كانت الأرض مغطاةً ببقايا الشاش، والجدران مُثقَبةً كأنّها جسدٌ أنهك من الطعن، رفعتُ هاتفي وصوّرت المشهد، لكنّ يدي كانت

ترتجف، ليس خوفًا، بل حزنًا على المكان الذي رأيتُ فيه الحياة تُصارع الموت عشرات المرّات، والذي أصبح الآن بلا حياةٍ ولا موت، بل انتظارٌ معلّقٌ بينهما، خرجتُ من هناك وسرتُ نحو شارع الجلاء، كان خاليًا تمامًا، الهواء باردٌ، والسماء رمادية، ولا شيء يُسمع سوى ارتطام الريح باللافتات الممزّقة، المدينة بدت كأنّها حلمٌ انتهى فجأة، ولا أحد استيقظ بعده.

كنتُ أمرّ على الأبنية المهدّمة وأهمس: "هون كنا نصوّر، وهون كنا نضحك، وهون وعدتُ أمي إنه أرجع بسرعة".

لكن لا أحد يجيب، غزة التي كانت تصرخ بالحياة صارت تهمس بالموت، وأنا بقيتُ فيها أبحث عن نبضٍ صغيرٍ يذكّرني أنّها ما زالت أمًّا لا جثّة، في كلّ زاويةٍ كنتُ أشعر أنّ شيئًا من روحي دُفن هناك، ومع ذلك لم أستطع الرحيل، كأنّ البقاء كان صلاتي الأخيرة.

بعد تلك الجولة، أدركتُ أنّ الخوفَ لم يعد يسكنني، كأنّني فقدتُ القدرة على الارتجاف، لم أعد أميّز بين صوتِ قذيفةٍ وصوتِ بابٍ يُغلق، كلُّ شيءٍ صار متشابهاً، حتى الموتُ نفسه، بدأتُ أوثّق ما تبقّى من الشمال، لم أكن أبحثُ عن مشاهد مؤثرة، بل كنتُ أحاولُ أن أقنع نفسي أنّ غزة ما زالت تتنفس، صوّرتُ الأزقة التي كانت تمتلئُ بالضحكات، وصارت الآن ممراً للركام، صوّرتُ المساجدَ المهدّمة وقد بقيَت فيها المآذنُ مائلةً كالأذرعِ المرفوعةِ نحو السماء، وصوّرتُ وجوهَ من بقوا هنا، شيوخاً يتكئون على أحزانهم، وأطفالاً يبحثون بين التراب عن لعبةٍ لم تذُب في النار.

منذ أن عدتُ إلى الشمال، لم أعرف طعم الراحة، كنتُ أسير بين الركام كأنني أمشي فوق صدري، كل زاويةٍ أعرفها، وكل حجرٍ يحملُ وجهًا من وجوه الذاكرة، هنا كان بيتُ صديقي، وهناك كانت بقالةُ العمّ سالم، وفي آخر الحارة كان أطفالٌ يلعبون الكرة قبل أن تُطفئ الحربُ ضحكاتهم، كنتُ أشعر أنّ غزة لم تَعُد مدينةً، بل جرحٌ مفتوحٌ يمشي على الأرض، هواؤها أثقلُ من الدخان، وصمتها يدوّي كالرصاص، وأنا أمشي فيها كأنني أبحث عن نفسي التي تفرّقت مع أهلها وأحبابها.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

حينها شعرتُ أنّ البقاء في الشمال صار خطرًا، خصوصًا على أهل ناجي، قرّرتُ أن آخذ زوجةَ ناجي وبناته إلى الجنوب، إلى مكانٍ أكثر أمنًا، ولو إلى حين، جمعنا بعض الثياب، وصورًا قديمة، وذميةً صغيرة كانت لسارة، وركبنا سيارةً بالكاد تسير، كأنّها تُساق بالدعاء لا بالوقود.

في 2/2/2025 كان الطريق طويلًا كأننا نعبر بين الحياة والموت، البيوت مهدّمة، الشوارع بلا ملامح، وكلّ حجرٍ يروي حكاية مَن سقط هنا، رأيتُ الناس يسيرون بصمتٍ يشبه صلاةَ المودّعين، وعرفتُ أنّ الحرب لا تقتلُ الأجساد فقط، بل تقتلُ الكلام أيضًا.

سارة ورندة صامتتان، تتشبّثان بيدي كأنّها آخرُ أمانٍ لهما، أما سارة، الصغيرة، فقد أسندت رأسها إلى كتفي وقالت بصوتٍ مرتجفٍ: "عمّو صالح إحنا وين رايحين ما بدنا نرجع للبيت؟"

ابتسمتُ لها، رغمَ أن قلبي كان ينزف، وقلت:

"بنرجع يا سارة، ما تخافي حبيبتي".

وحين وصلنا إلى الجنوب، استقبلتنا ميساء وعلي ووالدي، وكان البيت صغيرًا، لكنّه دافئٌ كأنّ الله وضع فيه قطعةً من رحمتهن ضحكات البنات ملأت المكان، كأنّهنّ يحاولن أن يغسلن بصوتهنّ كلّ رائحةِ حزنٍ علقت بثيابي، جلستُ بجوار أبي تلك الليلة، وجهه يحملُ تعبَ السنين وطمأنينةَ المؤمنين، نظر إليّ وقال بصوتٍ خافتٍ لكنه عميق: "يا بني، الله جعلك سترًا لبيت أخيك، ومن يَكُن سترًا لأهلِ فقدَ عائلَهم، يستره الله يوم لا سترَ إلا ستره".

أخفضتُ رأسي، وأجابتني دمعةٌ لم أستطع منعها: "يابا أنا تعبت". وضع يده على كتفي وقال: "كلّنا تعبنا يا صالح، بس التعب طريقُ الصابرين إلى النور".

في تلك الليلة، نمتُ وأنا أشعرُ للمرة الأولى منذ زمنٍ طويلٍ أن شيئًا من

الحياة عاد يتنفّس في صدري، وأنّ الحبّ، رغم كلّ هذا الرماد، ما زال قادرًا على إنقاذ الإنسان.

وفي الثامنِ عشر من آذار عام 2025، عاد الليلُ إلى مدينتنا دون أن يحملَ أيّ وعدٍ بالفجر، عاد القصفُ كأنّ الهدنة لم تكن سوى استراحةٍ قصيرةٍ بين جنازتين، استيقظتُ فجرَ ذلك اليوم على ارتجاف الزجاج، نظرتُ من النافذة، فرأيتُ نفس المشهد الذي ظننته انتهى قبل أشهر، السماء تحترق، والأرض تصرخ، غزة كلّها كانت تئنّ، بيوتٌ تنهار فوق ساكنيها، وأصواتُ الأطفال تخرجُ من تحت الركام كأنّها استغاثاتٌ من عالمٍ آخر، رائحةُ البارود غطّت رائحة البحر، وصوتُ الطائرات يُفقدك سمعك، كنتُ قد فقدتُ الشعورَ بالخوف، لكنّي لم أفقد الغضب، حملتُ الكاميرا، وخرجتُ كعادتي، الدم في الشوارع أكثرُ من المطر، والوجوه مشوّهةٌ من كثرة الحزن، كلُّ خطوةٍ كانت تعني المرور فوق جرحٍ جديدٍ أو ذكرى قديمةٍ لا تموت.

مرّت الأسابيع، والقصفُ لم يتوقّف، ولا الموتُ شبعَ من الناس كلّ يومٍ يرحلُ أحدٌ كنتُ أعرفه، الدمار يزدادُ، وغزة التي قاومت ألف مرّةٍ، صارت تحارب الآن بالجوعِ وحده، أما أنا، فلم أعد أملك سوى الكاميرا وبعض الصبر، كنتُ أحاول أن أنشر ما أصوّره، لكنّ حساباتي كانت تُغلق واحدًا تلو الآخر، كلّما أنشأتُ حسابًا جديدًا، كان يُغلق بعد ساعات، كأنّهم يريدون أن يقتلوا الصورة بعد أن قتلوا أصحابها.

تلقّيتُ تهديداتٍ كثيرة، رسائل لا تحمل اسمًا، وصوتًا خشنًا في مكالماتٍ مجهولةٍ يقول لي: "وقف، بكفي تصويرًا يا صالح".

لكنّي كنتُ أضحك، أحيانًا من الغيظ، وأحيانًا من الإيمان، وبين الحين والآخر، كنتُ أفتحُ هاتفي لأجد آلاف الرسائل من متابعين لا أعرفهم، من كلّ البلاد، يكتبون لي: "لا توقف يا صالح كمّل ".

لكنّ التهديدات لم تتوقّف، والقصف لم يتوقّف، ولا قلبي توقّف عن

الخفقان كلّما سمعتُ انفجارًا جديدًا، كنتُ أعرف أن النهاية تقترب، لكنّي لم أكن مستعدًا للسكوت، لأنّ الصمتَ في غزة، خيانة.

في تلك الأيام، كنتُ أرى الموتَ كلّ يوم، لكنّي لم أعتد عليه قطّ، كنتُ أظنّ أن القلوب بعد ألف مشهدٍ من الدمار تُصبح صلبةً، غير أنّ قلبي ظلّ طريًا كقلبِ طفلٍ يرى العالمَ لأوّل مرةٍ ويخاف عليه، أتذكّر جيّدًا يوم استُشهدَ إخوةُ الدكتور جمال، كان يبكي كما لم أرَ رجلًا يبكي من قبل.

صمتُه كان أقسى من صراخه، وعيناه كانتا تقولان كلّ ما عجز اللسانُ عنه، لم أتركه لحظةً واحدة، جلستُ إلى جواره، أمسكتُ بيده، كأنّ دفءَ كفي قد يخفّف شيئًا من بردِ الفقدِ الذي سكنَه، قلتُ له بصوتٍ حاولتُ أن أجعله ثابتًا: "يا جمال، وحد الله افرحلهم لأنهم شهداء".

رفع رأسه إليّ، ودموعُه على خديه، وقال: "صالح... والله أنتَ يلي بتخليني أصدق إنه الحياة لسا فيها خير".

منذ ذلك اليوم، صار جمال أخي الذي لم تلده أمّي، كنتُ أزوره كلّما استطعت، أجلسُ معه في المستشفى أساعده بما أقدر، نوزّع الطعام على الجرحى، ونقرأ الفاتحة على من رحلوا، كنتُ أرى في صمتهِ وجعَ غزة كلّها، وأرى في صبري معه معنى الأخوّة الذي لا تحدّه الدماء، أنا بطبعي كنتُ أميلُ للناس، لا أستطيعُ أن أرى أحدًا حزينًا وأمضي دون أن أقترب، الناس تقول إنّني حنون، لكنّ الحقيقة أنّ غزة هي من علّمتني الحنان.

حين ترى طفلًا يبحث بين الركام عن أمه، تتعلمُ أن تحتضن العالم كلّه لتُخفّف عنه، كنتُ أحبّ الأطفال أكثر من أيّ شيء، ربما لأنّهم وحدهم لا يعرفون الكراهية، كانوا يركضون نحوي كلّما رأوني في الشارع، يصرخون باسمي: صالح! صالح.

كنتُ أحملهم، أضحكُ معهم، وأصوّرهم، ضحكاتهم كانت تسرق من الحرب لحظةَ حياة، أحد الصغار قال لي ذات يوم: "إنت بتصوّر عشان تبين للعالم إحنا مش خايفين، صح؟"

ابتسمتُ له، وربّتُ على رأسه، وقلت: "بالضبط... عشان لما يكبروا يشوفوا إنهم كانوا أبطالاً وهمه أطفال".

لم أكن أملك إلا الكلمة والصورة، لكنّي كنتُ أؤمن أنّ الرحمة أقوى من الرصاص، وأنّ الإنسانَ الذي يحتفظُ بقلبه وسط الحرب، يقاتلُ بطريقته الخاصة.

رغم كلّ ما كان يحدث حولي، ورغم أنّ الموت صار جارًا لا يغيب، كنتُ ما أزال أحلم كنتُ أشتاقُ لمقاعد الجامعة، للقاعات التي كانت تضجّ بالأصوات والضحكات، للأصدقاء الذين تفرّقوا بين حدودٍ من الدخان، كنتُ أفتح صوري القديمة وأنا أضحك في باحة الجامعة الإسلامية، فأشعر أنّ شيئًا من الحياة ما زال يسكنني، وفي شهر حزيران / يونيو 2025، سمعتُ الخبر الذي أعاد إليّ بعض الأمل، الجامعة الإسلامية أعلنت عن عودة التعليم عن بُعد، جلستُ أمام شاشةٍ صغيرةٍ متشقّقة، اتصال الإنترنت متقطع، وصوت القصف أحيانًا يعلو، وفي الثاني والعشرين من تموز/ يوليو 2025، وصلني البريد الإلكتروني الذي جعلني أرتجف من الفرح:

"تم اعتماد تخرجك من كلية الصحافة والإعلام — درجة البكالوريوس".

قرأتُ الجملة عشرات المرات، ثم وضعتُ الهاتف على صدري وابتسمت، لم يكن أحدٌ حولي لأخبره، لكنّني شعرتُ أن أرواح الذين رحلوا تبتسم معي، وفي تلك الليلة نفسها، قدّمتُ طلب الالتحاق بـ درجة الماجستير، ليس لأنني أريد شهادةً أخرى، بل لأنني أردتُ أن أقول للعالم: "نحن لا نعيش فقط لنتذكّر الحرب، بل لنتحدّاها أيضًا، ولنكتبَ عنها من مقعد الصحافة ليس من تحت الركام".

منذ لحظة تخرّجي، بدأتُ أدرس الماجستير عن بُعد، كنتُ أشعر أنني أسير على خيطٍ دقيقٍ بين عالمين، عالمٍ من الكتب، وعالمٍ من الركام أحيانًا كنتُ أضع الكاميرا جانبًا لأكتب بحثًا، وأحيانًا أترك المحاضرة فجأةً لألحق سيارةَ إسعافٍ تمضي إلى مكان القصف، كان اليوم في غزة يبدأ بالإنذار وينتهي

بالخبر العاجل، وبينهما أحاول أن أعيش، أن أتعلم، أن أظل صالحًا لما أحلم به، كنتُ أدرس وأصوّر في الوقت نفسه، يدي اليسرى تمسك بالكاميرا، واليمنى تدون الملاحظات. أضحك أحيانًا من المفارقة، كيف يمكن لإنسانٍ أن يكتب عن الإعلام وسط هذا الخراب، وكيف يمكن لمدينةٍ تحترق أن تكون قاعةً للدراسة؟

لكنّي كنتُ أصرّ، كنتُ أقول لنفسي إن العلمَ لا ينتظر الهدنة، وإن المعرفة، في زمن الحرب، هي شكلٌ من أشكال المقاومة، وفي العاشر من آب/ أغسطس 2025، كنتُ في خيمتي المتواضعة، أراجع ملاحظاتي لمحاضرةٍ حول "أخلاقيات العمل الصحفي في مناطق النزاع"، عندما وصلني الخبر الذي خنق الهواء من صدري، رسالة قصيرة على الهاتف:

"استشهاد الصحفي أنس الشريف مع مجموعةٍ من زملائه بعد قصف خيمتهم شمال غزة".

تجمّدت يدي، بقيتُ أحدّق في الشاشة كأنني أرفض أن أقرأ ما كُتب عليها، تذكّرتُ صوته وهو يقول لي قبل أسابيع:

"إذا استشهدت أنا، لا توقف التصوير، خليك صور".

ركضتُ نحو الموقع كما لو أن قلبي يقودني، كانت رائحة البارود تختلط بالتراب، وأصوات الناس تعلو من بين الركام: "استشهدوا الصحفيين! كلهم بخيمتهم".

اقتربتُ من المكان، رأيتُ بقايا الخيمة التي كنا نجلس فيها قبل أسبوعٍ فقط، كنا نضحك ونتحدث عن الغد، عن التقارير التي سنصوّرها، عن مقاطع الفيديو التي نحلم أن تصل إلى العالم قبل أن تُغلق الحسابات، الآن، لم يبقَ شيء سوى الرماد والكاميرات المكسورة، مشيتُ بخطواتٍ بطيئة، حتى رأيتُه، كان أنس ممدّدًا على الأرض، وجهه ما زال دافئًا، وعيناه نصفُ مفتوحتين كأنّه لم يُكمل جملته الأخيرة، جثوتُ إلى جواره، وضعتُ يدي على صدره، قلتُ بصوتٍ مخنوق:

" غدروك يا أنس رحت يا صاحبي".

لكنه لم يُجب، كان السكونُ هذه المرة أبلغ من كلّ الكلمات، رفعتُ الكاميرا تلك الكاميرا التي شهدت كلّ شيء، وصوّرتُ المشهد، وقلتُ في الفيديو الذي نشرته على الإنستغرام: "هاي هي الجنازة يلي كنا خايفين منها، كم مرة هددوا أنس، كم مرة صرخ أنس، ولا حدا سمعه، مات أنس يا عالم اغتالوه".

انتشر الفيديو خلال ساعات، شاهده الملايين، أعاد نشره الصحفيون من كل أنحاء العالم، وامتلأت صفحات التواصل بالدموع والكلمات، لكن بعد أقل من يوم، استيقظتُ لأجد أن صفحتي حُذفت للمرّة العاشرة، نظرتُ إلى شاشة هاتفي الفارغة، وضحكتُ ضحكةً موجوعة، قلتُ لنفسي: "حتى الحزن بغزة بحتاج إذن للنشر".

في تلك اللحظة، قررتُ ألا أفتح صفحاتٍ جديدة، ولا أبدأ من الصفر مجددًا، تعبتُ من ملاحقة الحسابات كما يلاحق الجندي ظلّه، أردتُ أن أترك الصدى يعمل وحده.

بعد استشهاد أنس، تغيّر كلّ شيءٍ في داخلي لم أعد أرى في الكاميرا خلاصًا، ولا في النشر نصرًا، تركتها جانبًا، كأنّي أدفنُ معها جزءًا متينًا لكنّي لم أتوقف عن العمل، كنتُ أخرج كلّ يوم، أتنقّل بين المستشفيات والملاجئ، أحمل الماء والطعام، وأمدّ يدي لمن يحتاج، أساعد الطبيب، أرفع المصابين، أواسي العجائز، أربّت على كتف الأطفال الذين يبكون بصمتٍ لأنهم تعبوا من البكاء، كنتُ أفعل كلّ شيءٍ بلا تصوير، بلا توثيق، كأنّي أريد أن أقول: "ليس كلّ ما هو صادق يحتاج جمهورًا".

الناس ما زالوا يعرفونني، ينادونني في الطرقات: "يا صالح، الله يقويك".

فأبتسم وأكمل طريقي، بينما قلبي في داخلي ينهارُ بصمت، كنتُ أساعدهم بكلّ ما أملك، لكنّني كنتُ أكثر مَن يحتاج المساعدة، كنتُ أطعم الناس وأبقى جائعًا، وأواسيهم وأنا مثقلٌ بما لا يُحتمَل، أشتاقُ لأمّي البعيدة في قطر، ولناجي الأسير خلف الجدران، ولفايز الذي لا أدري إن كان ما زال

حيًا، ولأنس الذي تركني بين الحياة والذكرى، كنتُ أقول لنفسي كلَ ليلة: "يا ربّ، طوّل عمري بس لأرجع أشوف ناجي ولو لحظة".

كنتُ أحتاجه، أحتاج أن أراه، أن أسمع صوته، أن يقول لي كعادته: "اثبت يا صالح، الله معك".

لكنّ الصمت كان يردّ عليّ دائمًا، صرتُ أعيش بين الناس كأني ظلّ إنسانٍ، أساعدهم، أبتسم، أضحك، لكنّ قلبي في مكانٍ آخر، مكانٍ لم يصل إليه أحد، سوى مَنْ فقدَ كلَّ من أحبّ، وبقيَ وحده ليحمل الوجع عنهم.

بعد رحيل أنس، شعرتُ أن العالم سكت فجأة، كأنّ كلّ الأصوات التي كانت تصرخ في غزة توقّفت احترامًا لغيابه، الليل في تلك الخيمة كان أثقل من الرصاص، والصمت يحيطني كما يحيط القبر بجسده الأول.

أمسكت الهاتف، تأملت وجهي في انعكاس الشاشة، وجهٌ أنهكته الحرب لكنه ما زال يحاول أن يتذكّر نفسه قبل الدمار. ضغطتُ زر التشغيل، ثم بدأتُ أردد الكلمات بصوتٍ خافتٍ كأنه يخرج من بين الرماد:

نظرة بعد لاحفظها في بالي

بعدك بيهد يا صاحبي الغالي

ببكي عليك وببكي على حالي

راح السند وضل النذل فيها

هديت حيلي ف موتك يا خي

الدنيا عتمة فيها ضي

لو متراح تعيش في قلبي حي

ويا نار شوقي كيف أطفيها

من قال الحق جاه ملاك الموت

حسيت إني ياللي فيه الموت

كنتُ أغني، لكنّ قلبي كان يبكي، كل حرفٍ كان يشبه أنس، كل نغمةٍ كانت تذكّرني بضحكته التي كانت تُخفي خوفه من الموت، ذلك التسجيل لم يكن أغنية، كان مرثيّةً للروح التي سبقتني، وكان وعدًا بأنّي لن أترك الصوت يموت كما مات الجسد.

في أواخر عام 2025، بدأت الأحاديثُ تنتشر عن صفقةٍ جديدةٍ لتبادل الأسرى، كان الخبر يتسرّب ببطءٍ، كالماء في أرضٍ عطشى، وكلّما سمع الناس اسمًا من بين الأسماء، ارتفعت قلوبهم إلى السماء، في تلك الأيام، كنتُ أجلس في خيمتي، أتابع الإذاعات الصغيرة، أستمع لكلّ همسةٍ وكأنّها نبأ القيامة، وفي ليلةٍ من ليالي كانون الأول الباردة، سمعتُ اسمًا واحدًا جعلَ جسدي يرتجف: "ناجي الجعفراوي".

لم أصدّق في البداية، كرّرتُ الاسم مرارًا، خفتُ أن يكون تشابهًا، أو شائعةً عابرةً من شائعات الحرب، لكنني تأكدت تمامًا أنّ ناجي الجعفراوي من ضمن الدفعة القادمة من الأسرى، تجمّدتُ مكاني، ضحكتُ، ثمّ بكيتُ، ثمّ رفعتُ رأسي إلى السماء وقلتُ: "يا ربّ كملها معنا يارب وتخلص هالحرب ويرجع ناجي".

خرجتُ إلى الشارع، الهواء باردٌ، لكنّ صدري كان دافئًا كأنّ النار اشتعلت فيه من الفرح، أخبرتُ كلّ من التقيت، والناس بدأوا يهنّئونني كما لو أني أنا الخارج من السجن، كنتُ أقول لهم بابتسامةٍ لا أستطيع إخفاءها: "أخوي راجع، ناجي راجع".

تذكّرتُ وجهه وهو يُودّعنا قبل أسره، صوته في المآذن، ضحكته التي كانت تملأ البيت، كلماته حين قال لي آخر مرة: "صالح، مهما صار، خليك أنتَ لا تخاف".

كنتُ أعدّ الأيام والليالي كطفلٍ ينتظر والده بعد غيابٍ طويل، أتخيّل لحظة اللقاء، كيف سأركض نحوه، كيف سيبتسم لي كعادته، وكيف سأبكي

على كتفه دون خجل، وللمرة الأولى منذ زمنٍ بعيد، شعرتُ أنّ الحياة قد تُمهلنا قليلًا، إنّ الله رغم كلّ شيء، ما زال يترك لنا نافذةً من الفرح نطلّ منها على الغد.

في العاشر من تشرين الأول عام 2025، تمّ الإعلان رسميًا عن اتفاقِ لوقف الحرب، خرج الناس من الخيام إلى الشوارع، وجوهٌ متعبة، وأجسادٌ أنهكها الجوع والبرد، لكنّ العيون كانت تشعّ ببريقٍ لم يُرَ منذ شهور، كان الجميع يضحكون للمرة الأولى، ضحكةً مترددةً، خائفةً من أن تكون مجرّد وهم.

أما أنا، فشعرتُ أن عليّ أن أشارك هذا الفرح، أن أعيد للناس شيئًا من الحياة التي سرقها الدخان، ومن حسابٍ جديدٍ أنشأته الآن على "الإنستغرام"، نشرتُ مجموعة مقاطع مصوّرة، أتحدث فيها عن ناجي، أخي الذي طال انتظاره، وقلتُ للناس بابتسامةٍ عريضةٍ تكاد تخفي دموعي: "ناجي راجع، الحرب خلصت والله غزة رح ترجع تضحك".

كنتُ أتكلم من هاتف أحد أصدقائي، لأنّ الإنترنت لم يكن متاحًا للجميع، وكنتُ أريد أن تصل الكلمة لكلّ خيمة، لكلّ شارع، لكلّ إنسان، خرجتُ من المستشفى، وسرتُ بين المخيمات، صوتي يعلو وسط الزحام:

"يا جماعة يلي ساكنين بالخيم، خلصت الحرب، وصل اتفاق لوقف إطلاق النار، يا جماعة يلي بالدُور يلي ما عنده إنترنت ومش عارف، وقفت الحررب، تم التوصل لوقف إطلاق النار".

كان الناس يخرجون من خيامهم بوجوهٍ مذهولة، أطفالٌ يركضون حفاة، نساءٌ يرفعن أيديهنّ إلى السماء، ورجالٌ يبتسمون بعد بكاءٍ طويل، ذلك اليوم كان أشبه بالقيامة، لكنها هذه المرة قيامة للحياة، ليس للموت.

في الليلتين اللتين تَبعتا إعلان الهدنة، لم أنم كما ينام الناس، بل كما يحلم من ظلّ مستيقظًا عمرًا كاملاً، كانت الأخبار تؤكّد أن الدفعة الجديدة من الأسرى ستُفرج في الثالث عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2025، وكان

اسم ناجي يتردّد في كلّ قائمةٍ، وفي كلّ حديثٍ بين الناس، كنتُ أعيش على هذا الاسم؛ أنطقه كما يُنطق الدعاء، وأكتبه على التراب بأصبعي كطفلٍ يتهجّى أول حرفٍ من كلمة "أمل".

كنتُ أمشي في الشوارع كأنّ غزة استعادت لونها، الناس يزيّنون الممرات بأعلامٍ ممزّقة، الأطفال يركضون ويغنّون، والشمس، رغم الغبار، بدت أكثر دفئًا، كلّ شيءٍ صار جميلاً فجأة، حتى الركام بدا لي أقلّ وجعًا. صرتُ أستيقظ كلّ صباحٍ وأقول: "يومين بس يا ربّ، يومين وبرجع ناجي".

كنتُ أتخيله قادمًا بخطواته الواثقة، بصوته الهادئ، بثيابه البسيطة، أراه يدخل البيت فيحتضن الجميع، ثمّ يلتفت إليّ ويقول بابتسامته القديمة: "اشتقتُ لك يا صالح، لكنّي كنتُ أدعو لك كلّ ليلة".

كنتُ أتحدث عنه في كلّ مكان، للناس، للأطفال، للطبيب جمال، حتى للبحر حين أجلس أمامه، كنتُ أقول: "بعد يومين فقط، يعود صوت الأذان إلى بيتنا، يعود ناجي".

في تلك الأيام، صارت الحياة عندي خفيفةً، كأنها تنسى جراحها، كنتُ أضحك بلا سبب، أغنّي بين الممرات المهدّمة، أوزّع الخبز على الناس وأنا أقول: "قربت... قربت ترجع الضحكة".

ولأول مرة منذ عامين، بدت لي غزة جميلةً بلا تصنّع، كأنّها تنتظر معي الفجر نفسه، كنتُ أعدّ الساعات حتى الثالث عشر من تشرين الأول، أيامي الثلاثة الأخيرة التي لم أكن أعلم أنها الأخيرة، لكنّها كانت الأجمل؛ لأنّها كانت مليئةً باللهفة، ولأنّ الأمل حين يأتي بعد كلّ هذا الخراب، يبدو أحيانًا أجمل من الحياة نفسها.

رغم الفرح الذي كان يملأ قلبي بقربِ موعدِ الإفراج عن ناجي، لم أستطع البقاء في مكاني، شيءٌ في داخلي كان يدفعني للخروج، كأنّ الأرض نفسها تُناديني لأراها، لأودّعها، أو لأشكرها، حملتُ الكاميرا القديمة التي ما زالت تعمل رغم كل ما أصابها، وخرجتُ أتنقّل بين الحارات، كنتُ أرى الناس

تضحك وتبكي في الوقت نفسه، كأنهم لا يصدّقون أن القصف سكت أخيرًا، ولا يعرفون إن كان هذا السكون بداية حياةٍ أم فصلاً جديدًا من الانتظار، سرتُ نحو المنطقة التي كان فيها بيتنا القديم، تلك التي تركناها منذ أعوامٍ طويلة، كنتُ أعرف الطريق حتى وإن تغيّرت ملامحه، فالأقدام لا تنسى دروب الطفولة، كلُّ زاويةٍ كانت تستقبلني بصمتٍ يوجع أكثر من الصراخ، بيوتٌ بلا أسقف، نوافذُ خرساءُ تنظر إلى السماء الموحلة، وشوارع كانت تمتلئ بالأطفال صارت خاويةً إلا من الذكريات.

وقفتُ أمام مكانٍ برج الظافر 4، حيث كنا نعيشُ أنا وعائلتي، لم يبقَ منه سوى أعمدةٍ سوداءَ تشبه أضلاعَ مدينةٍ محترقة، رفعتُ الكاميرا وبدأتُ أصوّر، كنتُ أتحرّك ببطءٍ، كأنّي أخاف أن أدوسَ على ظلٍّ من ظلال الماضي، قلتُ لنفسي وأنا أوجّه العدسة نحو الأفق:

"هنا كنا نضحك، وهنا كنتُ أسمع صوت أمي وهي تناديني، وهنا كنا ننتظر أذان ناجي كلّ مغربٍ من نافذة المطبخ".

تسلّلت دمعةٌ من عيني دون أن أشعر، مسحتها بسرعة، لكنّها تركت أثرًا على العدسة، فبدت الصور مشوشةً، كأنّها تبكي معي، مشيتُ بين الأنقاض أصوّر ما تبقّى من المدينة، جدراناً تحمل أسماء الشهداء، ولافتاتٍ نصف محترقةٍ كتب عليها "سنعود" ، كنتُ أريد أن أوثّق كلّ شيء، أن أحتفظَ بغزة كما هي، قبل أن تُرمّمها الذاكرة وتُجمّلها الأكاذيب، وبينما كنتُ أتنقّل بين الركام، كنتُ أشعرُ بشيءٍ غريب، سلامٌ صغيرٌ في قلبي، كأنّ المدينة رغم كلّ شيء تغفر لي رحيلها المؤقت، وتقول لي بصوتٍ خافت: "عدتَ إليّ، وهذا يكفيني".

وفي صباح الثاني عشر من تشرين الأول، عام 2025، استيقظتُ باكرًا، قرابة السابعة، وكان في قلبي شيءٌ لا يشبه الأيام السابقة، السماء صافيةٌ على غير عادتها، والمدينة متعبة، لكنّها صامتة كأنها تلتقط أنفاسها بعد قرنٍ من الركض، أمسكت هاتفي لأؤدي امتحاني في مادة "الصحافة الإلكترونية" ضمن دراستي للماجستير، قدّمتُ الامتحان من داخل غرفتي،

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

كانت الأسئلة تدور حول الإعلام الميداني في مناطق الصراع، فضحكت في نفسي، كأن القدر يكتب لي سؤالًا عن حياتي نفسها، انتهيت من الامتحان، أغلقت الجهاز، حملت الكاميرا، وقلت لنفسي: "الدرس الآن في الشارع".

خرجت متجهًا نحو منطقة الصبرة في قلب غزة، كانت رائحة البارود لا تزال عالقة في الهواء، والبيوت نصف مهدّمة، والأطفال يركضون حفاةً بين الركام يبحثون عن بقايا ألعابهم، كنت أمشي ببطءٍ ألتقط الصور، وأحاول أن أختار لقطاتٍ لا تُظهر الموت فقط، بل ما تبقّى من الحياة وسطه.

في لحظةٍ قصيرةٍ لا تُنسى، سمعت صوت رصاصٍ قريب، رفعت الكاميرا دون وعي لأرى مصدره، لكنّ الرصاص هذه المرة لم ينتظرني، رصاصتان اخترقتا صدري، استقرتا في قلبي، لم أشعر إلا بحرارةٍ جارفةٍ، كأنّ النار اشتعلت داخلي، سقطت على الأرض، والسماء فوقي بدت قريبةً جدًا، كأنها تُنادي اسمي.

سمعت أحدهم يصرخ، "مسعف مسعف! في صحفي مصاب".

لكنّ الأصوات بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا، وصار كلّ ما أسمعه خافتًا، كأنه يأتي من بعيد، تذكّرت حينها ناجي وصوته وصوت أمي وهي تقول لي دومًا":خلي بالك يا صالح".

تذكرت إسراء وميساء، علي وياسمين، والدي وسارة ورندة، رأيتهم في السماء يضحكون في وجهي، تذكّرت الأطفال الذين كنت أصوّرهم يضحكون رغم الخراب، وتذكّرت البحر الذي وعدته أن أعود إليه، أغمضت عيني، وابتسمت كما كنت أفعل دائمًا أمام الكاميرا، لأنّي كنت أعلم أن الصورة الأخيرة يجب أن تبقى بابتسامة، هناك في منطقة الصبرة، توقّف نبضي، لكنّ الكاميرا التي سقطت بجانبي ظلّت تعمل، تُكمل ما بدأته، وفجأة من وسط الدمار من حولي، رأيت وجهًا أعرفه، كان أنس الشريف، كان واقفًا أمامي كما عهدته، بابتسامته الهادئة ونظرته الواثقة، مدّ يده نحوي وقال:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

"تعال يا صالح".

أمسكتُ بيده، وارتفعتُ معه، كأنّ جسدي صار خفيفًا مثل هواءٍ يعرف طريقه إلى السماء، من الأعلى رأيتُ المشهد كما لم أره من قبل: الناس تركض حولي، المسعفون يصرخون، وأحدهم يضع يده على صدري محاولًا إنقاذي.

وضعوني على الحمالة، واندفعوا بي نحو سيارة الإسعاف، الطريق إلى مستشفى الشفاء كانت طويلة، وصوت الصافرة يشقّ الضجيج مثل نداءٍ من عالمٍ آخر.

وصلتُ المستشفى، الدم في كل مكان، الأطباء يركضون، والوجع يملأ العيون، ومن الأعلى كنتُ أراقبهم برفقةِ أنس، لساعاتٍ طويلةٍ ظلّ الناس يسألون: هل ما زال حيًا؟ هل نجا كعادته؟

كانت الأخبار متضاربة، بعضهم قال: "إن صالح أُصيب إصابة خطيرة"، وبعضهم قال: "إنه بين الحياة والموت"، لكن في السادسة مساءً، خرج الصوت الرسمي من قلب غزة، صوتٌ خافت لكنه هزّ القلوب:

"تُعلن غزة اليوم، أنّ ابنها المقاتل بعدسته، الناجي ألف مرّة من الموت، صالح عامر الجعفراوي، قد ارتقى شهيدًا، وأنّ صوته، رغم السكون، ما زال حيًا بين الركام".

من فوق، رأيتُ وجوه الناس حين سمعوا الخبر، في الشوارع، في البيوت، في الخيام، الجميع بكى وكأنّهم فقدوا أخًا لا يعرفونه إلا بصورته وصوته، رأيتُ فايز يسقط على ركبتيه، يضرب الأرض بيديه، يصرخ: "وعدتني ترجع يا صالح".

ورأيتُ جمال الطبيب يجلس على الرصيف أمام المستشفى، يبكي بصمت رجلٍ تعب من إنقاذ الآخرين ولم يستطع إنقاذ صديقه.

ثمّ رأيتُ أبي في الجنوب، جالسًا على الأرض، لا يتكلّم، فقط يبكي

ويتمتم، وأمي في قطر، حين وصلها الخبر، صرخت حتى أغمي عليها، وياسمين، وإسراء، وميساء، وعلي، كلّهم اجتمعوا حول الهاتف، يبكون لا يصدّقون أن الوجه الذي كان يبتسم بالأمس صار صورة.

أما أنا وأنس، فكنا نراقب كل ذلك من الأعلى، قال لي: "انظر إليهم، البكاء ليس وداعًا، بل اعتراف بالحبّ".

أجبته وأنا أرى غزة تغيب في ضباب الغروب:

"ما زلت أسمع نبضها، ما زلت أراها تنبض بي، أنا لم أرحل، أنا فقط تغيّر مكاني".

في صباح اليوم التالي، الاثنين الثالث عشر من تشرين الأوّل عام 2025، استيقظت غزة على مشهدين متناقضين حدّ الوجع، في طرفٍ من المدينة، كانت الجموع تودّع شهيدها صالح عامر الجعفراوي، وفي الطرف الآخر كانت الحافلات تدخل محمّلةً بالأسرى العائدين إلى أحضان الوطن، في السماء، حيث لا يُسمع هدير الطائرات، كنتُ أنا وأنس نراقب الأرض، كانت الجنازة تتحرك ببطء، أمي تبكي بحرقة في دولةٍ أخرى، وعلي يمسك بيد والدي كي لا يسقط، والناس من حولهم ترفع التكبير.

همستُ لأنس وأنا أنظر إلى وجوههم: "شايف يا أنس، بيكوا علي وهمه مش عارفين إني حوليهم".

وبعد أن هُيل التراب فوق جسدي، مرّت قافلة الأسرى عند حدود القطاع، كنتُ أرى الحافلات من بعيد، واحدة منها كانت تحمل روحي الثانية، ناجي، كان جالسًا بجانب النافذة، وجهه شاحبٌ لكنه مغمورٌ بضوءٍ يشبه الرجاء، كان يبحث بعينيه بين الصحفيين، ينتظر وجهًا يعرفه، صوتًا، ضحكةً، أيّ أثرٍ لي.

اقترب منه صحفي شاب وقال: "إنت ناجي الجعفراوي؟ أخو صالح؟"

رفع ناجي رأسه بسرعة، والفرح بدأ يتسرّب إلى ملامحه: "نعم! وينه

صالح؟؟؟ المفروض ييجي يستقبلني؟؟؟"

تردّد الصحفي لحظة، ثم قال بصوتٍ مكسور: "صالح استشهد مبارح".

كأنّ الزمن توقف، يد ناجي أفلتت الورقة التي تحمل اسمه بين المفرجين عنهم، عيناه تجمدتا والشارع والكاميرات، وكلّ شيء صار بلا صوت، مددتُ يدي من الأعلى، أردت أن ألمس كتفه، أن أحتضنه كما كنت أفعل كل مرةٍ حين يضيق صدره، اقتربت أكثر، لكنني لم أستطع، كان بيني وبينه حجابٌ من الغيب، رأيته يرفع رأسه نحو السماء، كأنه شعر بي.

ثم تلا بصوتٍ متهدّج لكنه ثابت:

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

وبين دموعه قال: "يا رب، لا أريد إلا لقاءه، في دارٍ لا فراق فيها ".

حين وصل ناجي، جلس على الأرض وقبّل أقدام أبي، لم يتكلّم كثيرًا، وقرأ آياتٍ عن الصبر والثبات، ثم رفع يديه بالدعاء لي، وقال بصوتٍ خاشعٍ يسمعه الله وحده:

"اللهم إنك أخذت صالحًا شهيدًا، فاجعلني ممن يَلحق بهم دون امتحانٍ ولا خوف".

ومن الأعلى، كنتُ أنا وأنس ننظر إليهم، والدمع في أرواحنا يشبه المطر، قلتُ له وأنا أرى ناجي بين أحبّته: "قديش كان نفسي التقي فيه وأحضنه".

حين هدأ الصخب قليلًا، جلس ناجي على الأرض، يحيط به الناس، لكن صوته كان يعلو على كلّ شيء: "هاتولي أمي... بدي أمي، بدي أحكي معها".

كان وجهه مبللًا بالدموع، صوته متقطعًا بين أنفاسٍ متعبةٍ ودمٍ لم يجفّ بعد من أثر الأسر، أخذ الهاتف، وراح يصرخ من شدّة اللهفة كالطفل: "أمي وين؟؟ بدي أمي، يا حبيبة قلبي يما، راضية عني يما؟؟"

ومن الجهة الأخرى، جاءه صوتها مرتجفًا، خافتًا، مشبعًا بالشوق والدهشة:

"ناجي؟ يا حبيبي يما، الحمد لله إنك بخير".

أغلق عينيه، كأنّ صوته يخرج من عمق جرحٍ قديم، وقال وهو يختنق بالبكاء: "الله يشفيكِ يما، يا حبيبتي يما سامحيني أنا مقصر".

انكسر صوته فجأة، وغطّى وجهه بيديه، وقال بحرقةٍ تشق القلب: "يا أمي صالح شهيد يا حبيبتي، الله يعوضنا خير".

حين انتهت المكالمة، وضع ناجي الهاتف جانبًا، التفت إلى أبي، مشى نحوه بخطواتٍ بطيئة، ثم ارتمى في حضنه، ضمّه كما يضمّ طفلٌ والده بعد كابوسٍ طويل، وبكى كما لم يبكِ من قبل، رفع رأسه بعدها، مسح دموعه بيده المرتجفة، وقال بصوتٍ مملوءٍ بالإيمان، صوتٍ لم يكن فيه اعتراض بل تسليمٌ كامل:

"رضينا، فَارْضَ عنا يا رب، أخذتَ صالح لأنك أحببته، فلا تجعل حزننا يطغى على رضاك".

ففي تلك اللحظة، لم يكن ناجي مجرد أخٍ مفجوع، بل كان صورةً للصبر الذي تُعلّمه غزة، صبرٌ يكسوه الوجع، لكنه لا ينكسر.

من عالٍ لا يُدركه القصف ولا الغبار، كنتُ أراهم جميعًا، ناجي واقفًا بثباتٍ يحمله الإيمان، أبي بجانب ناجي لا يصدّق أنه هنا، أمي تبكي من بعيد وصوتها يملأ السماء، وأطفال إخوتي يسألون ببراءةٍ موجعة: "وين عمو صالح؟؟"

كنتُ أراهم وأتمنّى لو أن السماء تمنح الموتى لحظةً للعودة، لحظةً واحدة فقط، أضع فيها يدي على رؤوسهم، وأقول لهم: لا تبكوا، أنا ما زلت هنا، لم أغادر إلا جسدًا، أما روحي فباقية بينكم.

لكنّ السماء لا تُعيد أبناءها، هي تكتفي بأن تجعل لهم نوافذ صغيرة، يطلّون منها على من أحبّوا، ومن نافذتي تلك، كنتُ أراقب غزة، المدينة التي أحببتها حتى آخر نبضة، كنتُ أراها تتنفس رغم الركام، تنهض من بين

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الرماد كما كنتُ أراها في أحلامي، كلّ بيتٍ فيها يشبهني، كلّ طفلٍ يحمل في عينيه شيئًا من ابتسامتي، لم أعد صورةً على شاشة، ولا اسمًا في نشرات الأخبار، بل صرتُ حكايةً تُروى، وفكرةً لا تموت، وما أجمل أن يعيش الإنسان من أجل الحقيقة، ومن فوق، حيث لا خوف ولا وداع، أنظر إلى غزة كل فجرٍ جديدٍ وأقول:

"لا تبكوا على صالح، فصالح لم يرحل".

وهكذا، في يومٍ واحد، دفنت غزة شهيدًا، واحتضنت أسيرًا، وتصالحت السماء والأرض على دمعةٍ واحدةٍ حملت معنى الحياة والموت معًا.

تمّت بحمد الله

***

@ART_OF_BOOK

«الوصـــية»

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، القائل: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ".

أنا صالح.

أترك وصيتي هذه، لا وداعًا، بل استمرارًا لطريقٍ اخترته عن يقين.

يعلم الله أنني بذلت كل ما أملك من جهدٍ وقوة، لأكون سندًا وصوتًا لأبناء شعبي، عشتُ الألم والقهر بكل تفاصيله، وذُقت الوجع وفقد الأحبة مرارًا، ورغم ذلك لم أتوانَ يومًا عن نقل الحقيقة كما هي، الحقيقة التي ستبقى حجة على كل من تخاذل وصمت وأيضا شرف لكل من نصر ودعم ووقف مع أشرف الرجال وأعز الناس وأكرمهم أهل غزة إن استشهدت، فاعلموا أنني لم أغب...

أنا الآن فـي الجنة، مع رفاقي الذين سبقوني؛ مع أنس، وإسماعيل، وكل الأحبة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

أوصيكم أن تذكروني فـي دعائكم، وأن تُكملوا المسير من بعدي.

تذكروني بصدقاتٍ جارية، واذكروني كلما سمعتم الأذان أو رأيتم النور يشقّ ليل غزة.

أوصيكم بأبي .. حبيب قلبي وقدوتي، من كنت أرى نفسي فيه ويرى نفسه فـي .. يا من رافقتني وقت الحرب بكل ما فيها.. أسأل الله أن نلتقي فـي الجنان وأنت راض عني يا تاج رأسي.

أوصيكم بأخي ومعلمي ورفيق دربي ناجي، يا ناجي... قد سبقتُك إلى الله قبل أن تخرج من السجن، فاعلم أن هذا قَدَرٌ كتبه الله، وأن الشوق

@ART_OF_BOOK

إليك يسكنني، كنت أتمنى أن أراك، أن أضمّك، أن نلتقي، لكن وعد الله حق، ولقاؤنا في الجنة أقرب مما تظن.

أوصيكم بأمي...

يا أمي، الحياة بدونك لا شيء.

كنتِ الدعاء الذي لا ينقطع، والأمنية التي لا تموت.

دعوتُ الله أن يشفيك ويعافيك، وكم حلمت أن أراكِ تسافرين للعلاج، وتعودين مبتسمة.

أوصيكم بإخوتي وأخواتي، رضا الله ثم رضاكم غايتي، أسأل الله أن يسعدكم، وأن يجعل حياتكم طيبة كقلوبكم الرقيقة التي طالما حاولت ان اكون مصدر سعادةٍ لها.

كنتُ أقول دومًا:

لا تسقط الكلمة، ولا تسقط الصورة.

الكلمة أمانة، والصورة رسالة، احملوها للعالم كما حملناها نحن.

لا تظنوا أن استشهادي نهاية، بل هو بداية لطريقٍ طويلٍ نحو الحرية. أنا رسول رسالةٍ أردت أن تصل إلى العالم، إلى العالم المغمض عينيه، وإلى الصامتين عن الحق.

وإن سمعتم بخبري، فلا تبكوا عليّ. لقد تمنّيتُ هذه اللحظة طويلًا، وسألت الله أن يرزقني إياها، فالحمد لله الذي اختارني لما أحب.

ولكل من أساء إلي في حياتي شتماً أو قذفاً كذباً وبهتاناً أقول لكم ها أنا أرحل إلى الله شهيدًا بإذن الله وعند الله تجتمع الخصوم.

أوصيكم بفلسطين... بالمسجد الأقصى... كانت أمنيتي أن أصل فناءه، أن أصلّي فيه، أن ألمس ترابه.

فإن لم أصل إليه في الدنيا، فأسأل الله أن يجمعنا جميعًا عنده في

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

جنات الخلد، اللهم تقبّلني في الشهداء، واغفر لي ما تقدّم من ذنبي وما تأخّر، واجعل دمي نورًا يُضيء درب الحرية لشعبي وأهلي.

سامحوني إن قصّرت، وادعوا لي بالرحمة والمغفرة، فإني مضيت على العهد، ولم أُغيّر ولم أُبدّل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم الشهيد بإذن الله

صالح عامر فؤاد الجعفراوي

12/10/2025

***

@ART_OF_BOOK

صالح عامر الجعفراوي، من مواليد 22 نوفمبر 1997 في مدينة غزة، الابن الأوسط في عائلته، حافظ لكتاب الله ومنشد بصوتٍ عذب، ولاعب تنس بارز حاز على جوائز عديدة، تخرّج في قسم الصحافة والإعلام من الجامعة الإسلامية بغزة، وكان محبوبًا بين زملائه في الجامعة لخلقه الطيب وروحه المرحة، وازداد حب الناس له خلال حرب 7 أكتوبر حين نقل بعدسته معاناة أهل غزة بشجاعةٍ نادرة، واستُشهد في 12 أكتوبر 2025، بعد يومين فقط من انتهاء الحرب التي استمرّت لعامين، على أيدي عصاباتٍ مسلّحة، عن عمرٍ ناهز 27 عامًا

KHALED FARASIN
+962795262886

9 789957 776619

Deer
دير للنشر والتوزيع

SPIRIT OF BOOK